أيمن رجب طاهر
ليل زوارة
رواية
KAYAN PUBLISHING

ليل زوارة

أيمن رجب طاهر

رواية

ليل زوارة

رواية

تأليف :

أيمن رجب طاهر

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

تحرير أدبي:

سندس الحسيني

مراجعة لغوية:

أحمد سعيد

رقم الإيداع: 2017/22460

الترقيم الدولي: 978-977-820-046-1

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة – الهرم

هاتف أرضي: 0235611772 0235688678-

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: kayanpub*gmail.com - info*kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من النـاشـر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

الإهداء

إلى رفاق السفينة التي تمخر عباب الحياة

الغرق هو الحدث الوحيد الحقيقي

أما

شخوص وأماكن وأحداث الرواية

فمن نسج الخيال، وأي تشابه بين

شخصيات وأماكن وأحداث حقيقية

هي من محض الصدفة وبلا قصد

-1-

ما كادت أصابعه تقبض على الحافة الخشبية حتى سمع صوت المجذافين يضربان الماء في قوة، يلتفت في حدة إلى القارب الصغير، وهو يبتعد فيضطرب قلبه لكتل الظلام التي جثمت حوله، تمنّى لو يعود مع القارب إلا أن أيدي زملائه تجاسرت وسحبته ليتخطى السياج الخشبي وتستقر قدماه على السفينة.

نظراته تصطدم بالوجوه المتعبة لكن ظلام الليل جعله لا يرى سوى القريبين منه، جاهدا يحاول الحفاظ على اتزانه، قامته تترنح مع اهتزازات السفينة فيباعد بين قدميه مزدردًا لعابه في سرعة، الجميع ينتظر التحرك ونفوسهم الممزقة ترنو إلى الشاطئ البعيد المظلم في وجل ممزوج برهبة المغامرة، تارة أخرى يزر عينيه فيرمق القارب كريشة تتقاذفها الرياح نحو البر، وشبح أحد المجدّفين يسحبه خارج المياه الضحلة، يفيقه من شروده صوتٌ مختلط بأمواج البحر:

- يا رفاق، فليجلس كل منكم مكانه.

يلتفت، على ضوء الكشاف الصغير الذي يرفعه الشاب آخر السفينة يرى وجهه القميء وصلعته اللامعة، من بين شفتيه الغليظتين تخرج تعليماته بالعربية الركيكة ذات اللكنة الأجنبية:

- ممنوع واحد منكم يتكلم، كلكم تصمتون، تجلسون ساكتين إلى أن نصل، لا أحد يقف، لا أحد يميل نحو حافة السفينة، من يقع منكم في البحر سنتركه يغرق، اجلسوا مكانكم.

مثلهم رضخ للأمر، وظل محشورا وسط رفاقه وهو يمني نفسه بسلامة الوصول عند شروق الشمس، يلتفت للجالس جواره فيحدّق فيه بعينين ساكنتين وكأنه ينفذ التحذير،

الجالس أمامه يتثاءب ويُميل جسده متكئًا على ذراعه، تلاشت زرقة الماء وأمست داكنة بلون الليل الذي استتروا بحلكته.

لم يجد شيئا ينظر إليه سوى السماء، تتسع عيناه من هول القبة السوداء وارتعاشات النجوم وهي ترسل نتفا من ضوئها الشارد، يزدرد لعابه وهو يحدّق في أبراج السماء بنجومها الوامضة، كعادته يميّز مجموعة الدب الأكبر، تفتر شفتاه عن ابتسامة ساخرة عندما ربط مربع برج السرطان ونجومه الأمامية والخلفية فمنذ أن أدرك أنه من مواليد هذا البرج، تدرّب على رصد نجومه وهو يبحث عنه دائما في الليالي الصافية حتى يجده ويظل يتأمله إلى أن يمحوه بزوغ ضوء النهار.

في حدة يلوي عنقه لصوت آلات السفينة التي بدأت تهدر وتتحرك في بطء، التفت إلى الشاطئ فودعت عيناه الصخور المبتعدة، بأنامل مرتعشة يلامس حبات الرمال التي لا تزال عالقة بين أصابع قدمه، يشمها فتنتشي رئتاه لرائحة البر المتباعد، لم يلبث أن حال الظلام بين نظراته الصقرية وحواف الشاطئ فاستسلم والتقط نفسا ممطوطا مقررا التزام الصمت.

بعينين تترقرق فيهما العبرات يودع الأضواء البعيدة لبيوت زوارة، تلك المدينة البعيدة غرب طرابلس التي أمضى بها الأيام الماضية إلى أن حانت ساعة الرحيل، يغمغم في خفوت: ترى أي ضوء يومض من حوش الفضيل الذي قاسيت فيه ملل الانتظار؟

تتباعد أضواء المدينة إلى أن خفتت، فرفع يده مودعا، تتشابك أهدابه في بطء لكن السفينة ترتج فتجحظ عيناه في قوة، تدور نظراته في الوجوه القريبة منه، رذاذ الماء يداعب وجنته المرتعشة، وجهه ينتشي من نسيم البحر، إنه الهواء الرائق الذي أنعش رئتيه قبالة شاطئ سيدي بشر بالإسكندرية، حين كان يجلس في أحد المقاهي ليتفق مع سمسار السفر على ترحيله، تأوهٌ ممطوطٌ لفظه صدره فانفلتت حبال تلك الذكريات القريبة ليقتل بها صمت الليل ورهبة فراق الشاطئ، تتماوج جلسته مع حمود الإسكندراني وهو يسلمه المبلغ المطلوب ويفهم منه ترتيب السفر إلى ليبيا.

بعد نجاح اتفاقه استقل الميكروباص إلى السلوم، رحلة طويلة قطعتها العربة في سرعة، أول استراحة توقفت أمامها السيارة في العلمين، نزل من الميكروباص لكنه خشي أن يجلس أمام الاستراحة لأسعارها السياحية فبقي أمام السيارة يتأمل مباني المدينة، تمنى أن يطول الوقت ليزور مقابر العلمين التي تخلد ذكرى الحرب الكبرى الثانية فقد درس تفاصيلها أيام الجامعة لكن لم تأتِ فرصة كي يزورها، يوم أن أعلنت إدارة الكلية عن رحلة إلى مرسى مطروح؛ حجزه ضيق ذات اليد عن الاشتراك في تلك الزيارة التي تمناها، إنه الآن يقف وسط المدينة وأيضا يحول السفر دون التجول في شوارعها النظيفة أو زيارة مقابرها التي يأتيها أقارب وأحفاد المدفونين بها من كل دول العالم.

لم يمكث السائق أكثر من عشر دقائق وانطلق بركابه نحو مرسى مطروح، شاهد لأول مرة الساحل الشمالي الذي كان يسمع عنه كثيرا، من نافذة السيارة تأمل الفيلات بتصميماتها الرائعة والقرى السياحية المتناثرة بفنادقها الفخمة، ليلة واحدة تمنى أن يبيتها في إحدى بنايات ألف ليلة وليلة التي يُعلن عنها كل ساعة ويعيش حياة الرغد التي يراها في التلفاز، تارة أخرى توقفت السيارة أمام مقهى كبير في مرسى مطروح، وجدها فرصة ليتخلص من الدخان المنبعث من الشاب الراكب جواره والذي كان يشعل السيجارة من عَقِب أختها، أشد ما يحتاجه كوب من الشاي حتى لو سيدفع فيه عشرين جنيها، قريبا من باب المقهى يجلس، في تلذذ يحتسي الشاي الساخن مع قضمات الشطيرة المتمهلة إلى أن أنهى غداءه، خطا متتبعا الركاب العائدين إلى السيارة.

جلس جوار النافذة يتأمل الطريق والسيارات تمرق من حوله، طفر وجه أمه التي دعت له بالسلامة والعودة سالما لها ولأخته رضوى وأخيه إيهاب، دمعة متحجرة فاضت بها عينه، تمنى أن تتوقف السيارة فورا، يحدث شيء يعطل السفر فيعود إلى بلدته أبنوب الهادئة شرق النيل، يبقى بين أسرته الصغيرة لكن اختياره لم يعد له فرصة للتراجع، أغمض عينيه وغفا، لم يدر كم انقضى من وقت حين باعد بين أهدابه لتوقف السيارة فقرأ لافتة «سيدي براني تتمنى لكم السلامة».

يدرك أن بعد سيدي براني لا مدن كبرى سوى السلوم ومن معبرها سينفذ إلى الحدود، وهناك تبدأ رحلة طويلة نحو طرابلس.

كغيرها من السيارات توقف الميكروباص لينتظر دوره في العبور، فتح حقيبته الصغيرة، تأكد من وجود جواز سفره، خفق قلبه وهو يقرأ «ميناء السلوم البري» بعد انتهاء إجراءات التفتيش وفحص تأشيرات السفر، تخطت السيارة المعبر وصدره يعلو ويهبط من فرط الانفعال، ودّعت عيناه المعبر وأبوابه العملاقة، انتبه للطريق، قرر ألا تغفو عيناه لينحت في ذاكرته كل ما سيراه في ليبيا، عرف من السائق أن وجهتهم المباشرة ستكون نحو بنغازي، بطرف عينه لمح وجوما يحط على وجوه رفقاء الرحلة، وكأن كلًا منهم يخفي بين طيات ملامحه أسرارا لا يريد أن يعرفها أحد، الجالس جواره رحمه من دخان سيجارته بنومه الهادئ فابتسم لصوت أنفاسه المنتظمة، لكن ابتسامته غاضت عندما علا غطيطه في شخير متقطع اعتبر أنه أهون ألف مرة من سجائره التي لا يكف عن حرقها وسحب الدخان تعبق السيارة.

لم يعرف أن الطريقَ طويلٌ لهذه الدرجة؛ فكم من بلاد وقرى مر بها، بحور من رمال الصحراء ظن أنها لا تنتهي ثم طريق آخر على ساحل البحر، لم تتوقف العربة السريعة من طبرق حتى بنغازي إلا مرة واحدة في البيضاء لمدة نصف ساعة أمام استراحة كبيرة فتناول الطعام وشرب الشاي، كل ذرة في جسده تخفق بالإرهاق، تطالب براحة من اهتزازات السيارة، من فرط التعب عجز عن مشاهدة معالم المدينة من حوله فأغمض عينيه وهو يتكئ بذراعه على المنضدة، حين عاد الركاب لمقاعدهم هزّه السائق في قوة فنفض ما به من رغبة ملحة في النوم وعاد إلى مكانه بالسيارة، فانطلقت بهم حتى مرسى العريجة فقرأ لافتتها وأهدابه تتشابك.

لم يدر كم ساعة مرت عندما فتح عينيه على صوت أحد الركاب يعلن أنهم غادروا بلدة زليطن ولم يتبق سوى عشرة كيلومترات على طرابلس، نهبت السيارة الطريق، قرب مدخل المدينة أبصر لافتة كبيرة مضاءة بأنوار مبهرة عليها صورة العقيد معمر القذافي بالزي

العسكري المميز، مكتوب أسفل الصورة الكبيرة «أربعون عاما من الثورة» في سرعة تجاوزتها السيارة، تنحرف في الشوارع الرئيسة إلى أن أعاد السائق عبارته المكررة: حمدا لله على السلامة.. لم تلبث السيارة أن هدأت من سرعتها وهي تقتحم الموقف الكبير للعاصمة.

ما إن لامست قدماه أرض الموقف الصاخبة بأصوات المنادين على الركاب والباعة الجائلين حتى شعر بالاطمئنان لوصوله أخيرا إلى العاصمة التي تخيلها كالقاهرة أو الإسكندرية، حمل حقيبته الصغيرة، جرّ قدميه نحو أقرب مقهى، تهالك على المجلس طالبا كوبا من الشاي وشطائر، في شهية يتناول طعامه، يرشف الشاي الساخن، تدور عيناه ليستطلع تلك البقعة من المدينة الكبيرة القريبة من البحر، تناهى لمسامعه صوت الأذان، أنهى طعامه -وكما تقول التعليمات التي تلقاها من حمود الإسكندراني- يلزم عليه التوجه نحو موقف السيارات المتجهة إلى زوارة ويسأل عن مقهى الأصدقاء المقابل له.

تتسارع دقات قلبه كلما اقترب من المقهى، لم يجد مقعدا فارغا من كثرة الشباب المتجمعين، بعضهم يتناول الطعام، وآخرون منشغلون بمشاهدة التلفاز، لاحظ أن معظمهم في أعمار متقاربة، تحت الثلاثين بل إن لفيفا منهم لم يختط شاربه بعد..

بشرات مختلفة، سوداء، شقراء، قمحية، عيون قلقة، مسهدة من طول الرحلة والانتظار، داخل حمّام المقهى ذي الرائحة الزَّهِمَة، لفظت أمعاؤه نفايات رحلته الطويلة وما إن خرج حتى مدّ صبي صغير يده، بابتسامة باهتة أعطاه جنيها، قلّبه الولد بين يديه ثم هز رأسه كمن اعتاد تلقي تلك العملات ممن لم يبدلوا نقودهم بعد..

تمنّى لو يجد مترا يتمدد فيه؛ يريح ظهره المشدود وأطرافه المنهكة، لكنه يجب أن يبقى متيقظا لحين قدوم سعدون، كما أفهمه الإسكندراني حمود، بدون سعدون هذا لن يتمكن من عبور البحر، أكثر من عامل في المقهى يسرعون في حركتهم لتلبية طلبات الزبائن الكثيرين، أحدهم يقترب منه، انتهز فرصة تنظيفه لإحدى المناضد القريبة فسأله عن

سعدون، دون أن يلتفت إليه الشاب أجاب بأنه لم يصل بعد، ثم سمع منه وهو يبتعد عنه كلمات: قرب المغرب.

عضلاته تئن من وطأة إرهاق الجلوس في الميكروباص، تزيده توترا الأصوات الصاخبة من حوله ونفير السيارات الذي لا يتوقف، ثلاث شجرات أمام المقهى، حولها مناضد ومقاعد ومدخنو الشيشة لا يكفون عن تبادل مباسمها، لمح عدة أشبار فارغة تحت شجرة المنتصف، التفت يمنة ويسرة، خطا نحوها، استقبلت المساحة الفارغة جسده المنهك وجذعها الحاني أراح ظهره المكدود، مثل المرات السابقة، فتح الحقيبة، تأكد من جواز سفره، أخرج الكتيب الصغير، يكرّر قراءة العنوان «الإيطالية بدون معلم»، منذ اقتنائه من بائع الجرائد وهو يحاول حفظ بعض الكلمات والعبارات الهامة التي قد يستخدمها فور وصوله إلى إيطاليا، يكرر جملا بعينها:

- كومي تي كيامي؟ أي ما اسمك؟

- دوفيه سيامو أديسو؟ معناها أين نحن الآن؟

- أسينيو بوستالة، أي حوالة بريدية.

همّ أن يواصل تكرار العبارات التي وضع تحتها خطا لكن الكلمات اهتزّت أمام عينيه المتعبتين، وضع الكتيب في حقيبته، حول كتفه لف حزامها، أمال القبعة على عينيه وأغمضهما في توجس، من حين لآخر يفتحهما فتهتز صورة العقيد من بعيد في التلفاز وهو يخطب، بعضهم يستمع وأكثرهم منشغلون بأحاديثهم الجانبية، راقب المارة، أغلبهم لا يرتدي الزي الليبي المعروف الذي رآه في التلفاز، زحام الشباب حوّل المقهى إلى ثكنة من ثكنات الترحيل، تناهى لمسامعه ارتجاعات أذان الظهر لكن أهدابه تشابكت في قوة أعجزته عن مقاومة النوم.

***

السفينة تتمايل في قوة ففتح عينيه للدوار الذي بدأ يشعر به، قاوم الغثيان الخفيف، دارت عيناه في الوجوه القريبة منه لعله يعثر على عربي الدمياطي رفيقه في حوش الفضيل أو أي إنسان يعرفه، ربما أحدهم معه حبة ليمون أو يخبئ أقراصًا تهدئ من حالة الدوار التي زادت سيطرتها عليه، لكن الوجوه السمراء المحيطة به تحالفت مع ظلام الليل وحجبت عنه رؤية أي شاب يعرفه.

من بعيد يحمل هواء البحر بقايا أصوات متقطعة، أيقن أنها إقامة الصلاة، أغمض عينيه وعاد يتذكر نومته الهادئة تحت إحدى الأشجار المقابلة للمقهى في انتظار سعدون، فتح عينيه في قلق، شعر بجفاف حلقه، نهض منفضا التراب العالق ببنطاله، استطلع المقهى، أحس أن رواده قلت أعدادهم، بعضهم يضع هاتفه المحمول على أذنه ويتحدّث بصوت مرتفع.

جزعت نفسه من أن يكون المدعو سعدون قد حضر وغادر ولم يقابله، تارة أخرى سأل النادل عنه فأكد أنه لم يجئ بعد، التقط أنفاسه، سحب الغطاء الخشبي للزير المركون وسط عدة قدور، بالكوز اغترف الماء البارد، جرعات الماء تهدئ نفسه القلقة، قرر أن يعود إلى مكانه تحت الشجرة، ابتسم للشابين اللذين جلسا متقابلين أسفلها، تمشّى نحو المسجد القريب، تعبُّ رئتاه ريحا طيبة معبقة بنفح الطيب ينفثها باب المسجد ونوافذه المفتوحة على مصراعيها، ما إن دلف حتى ضجت رائحة البخور من أعواد مثبتة في الجدران.

بـتأنٍ سار بين الجالسين حتى باب جانبي، سُرّ للميضأة النظيفة، ركن الحقيبة جواره، طرد الوضوء بقايا التعب، أعادت الصلاة بعضا من سكينة نفسه، راوده تصميمٌ على البقاء أسفل أحد الأعمدة والنوم تحت المروحة، لكنه خشي وصول سعدون فجأة، وقد عرف أنه لا

يمكث في المقهى سوى دقائق فيضطر إلى السفر بمفرده والبحث عنه في زوارة، زاد رفضه لفكرة النوم بعد أن قرقرت معدته بأنين ممطوط فشعر بجوع لم يراوده من قبل.

من مطعم قريب للمأكولات الشعبية تناول الطعام وأحضر شطائر أخرى معه، عاد إلى المقهى مقررا ألا يبرحه، جلس برفقة كوب الشاي، رشف في بطء وقد زال عنه شيء من قلق الرحلة، استبطأ انحدار النهار إلى نهايته، فانشغل بمراقبة الشمس وهي في طريقها إلى الغروب إلى أن غطست في البحر البعيد والشفق الأحمر يتمطى عبر الأفق، همّ أن يفتح كتاب تعلم اللغة الإيطالية لكن عينيه التقطتا وجه شاب أسود يتحدث في هاتفه المحمول، لم يلبث أن كشفت ابتسامته عن أسنان ناصعة البياض، وهو يغلق الهاتف ويرفع صوته الرفيع بحروف عربية بدت غريبة: - سعدون، سعدون يصل الآن.

سيارة أجرة تتوقف، ينزل منها رجل خمسيني رفيع يرتدي قميصا أسود، التف الشباب حوله، بدد لغطهم شروده، انتتر واقفا، في سرعة خطا نحو الرجل الذي جلس في باحة المقهى، واحد من الأفارقة يسلم عليه ويعطيه لفة، يلتفت إلى ثلة الشباب الواقفين من بعيد ثم يهز رأسه ويوسوس لقائدهم، بدوره يومئ الشاب إشارة الفهم، سمعه يتحدث إلى رفاقه بلغته السريعة ثم يصطحبهم مغادرين المقهى.

خشي ألا يكون هذا الرجل هو سعدون فيُنصب عليه، سأل صبي المقهى عن اسم الرجل وما كاد يسمع اسم سعدون حتى خفق قلبه في قوة وتوجه إليه، ألقى عليه السلام ووقف وسط رفقائه، سلمه مظروفا صغيرا، بقسمات وجهه الصارمة، فرد سعدون الورقة ثم وضع المبلغ المالي في جيبه، هز رأسه وردد الاسم:

- طارق؟

- من طرف حمود الإسكندراني.

وكأنه سأم الكلام هزّ رأسه في لا مبالاة فتنحّى طارق جانبا، دون أن يشعر انضم إلى لفيف من الشباب خلف سعدون، أذان العشاء يعلو، تمنّى لو يعود إلى المسجد، وطمع في أن يسأل سعدون عن مدة بقائه، لكنه فوجئ بالرجل ينهض مشيرا له، ساروا نحو سيارة ميكروباص، ركب في سرعة، في قلق ازدرد لعابه وهو يرى سعدون يستقل سيارة أخرى، سأل الجالس جواره فأفهمه الشاب المصري ذو الوجه الممصوص أن سعدون سيلحق بهم في زوارة.

استقبلت السيارة الطريق، وهواء البحر يعيد لصدره الراحة بعد طول انتظار، أغمض عينيه مقررا النوم فلم يشعر بالطريق حتى توقفت السيارة فنزل مع رفاقه، لحظ بيوت المدينة تتسربل بظلام الليل، ساروا جميعا نحو مقهى مشابه للذي تجمعوا فيه بطرابلس.

انضم إليهم منتظرا وصول سعدون لكن هذه المرة لم يتأخر، نزل من السيارة وأمر تابعه بأن يصحب مجموعة من الشباب، أشار إلى آخرين أن يتبعوه، تجاسرت رغبته في أن يسأله عن وجهتهم فأجاب دون أن يلتفت وراءه أنهم سيمكثون في حوش الفضيل لحين تدبير موعد ركوبهم السفينة، سار خلفه في شارع كبير ثم انعطف في شارع أصغر، الزقاق القصير الذي يسمونه زنقة انتهى بهم إلى فسحة واسعة في منطقة بعيدة عن بيوت المدينة، أمرهم أن يدلفوا ومع آخر الداخلين أغلق الباب ووقف وسط الشباب جواره رجل كبير السن يرتدي الملبس الليبي المشهور من طاقية على الرأس وقميص وسروال أبيض، خلفه رجل آخر قصير دميم عرف أنه مساعد للفضيل.

- بقاؤكم لن يطول، سلامتكم مرهونة بوجودكم في الحوش، والفضيل وعكرة سيقومان على خدمتكم.

قالها سعدون بلكنته الليبية التي تختطف الكلمات وهو يرفع سبابته أمامهم ثم صمت والعيون من حوله متلهفة لسماع موعد الرحيل لكنهم فوجئوا به يفتح كيسا كبيرا يشبه زكيبة مصنوعة من الصوف، يطلب منهم تسليم جوازات سفرهم وبطاقاتهم الشخصية، تلاغطت ألسنة البعض معلنين رفضهم، واقترح أحدهم أن تسليم جواز سفره سيكون قبل

ركوب السفينة مباشرة فإن تراجع عن فكرة الهجرة لأمر طارئ أو تأجل ركوبهم البحر يستطيع مغادرة ليبيا والعودة لبلده، غمغم سعدون بكلمات عبثية ثم علا صوته وسطهم:

- حسنا، هي معكم ولكن سآخذها ليلة سفركم ومن يتراجع عن الهجرة ما له عندي مال.

ران الصمت على الجميع وتارة أخرى يتزعم ذلك الشاب الرأي بالموافقة فهزّ سعدون رأسه في تأفف ثم تركهم بلا تحية وخرج.

غادرهم سعدون وتبعه الفضيل، بقي عكرة ينفث دخان سيجارته ويتحدث لهم بكلمات عبثية غير مفهومة يخلط كلمات عربية بأخرى إيطالية، فانصرف عنه الشباب ليختار كل منهم مترين يمدد جسده المنهك بعد عناء السفر، في حيرة وقف الشباب لبرهة وكل منهم لا يرى من الآخر غير وجهه ذي القسمات المتكسرة من فرط التعب، بلا نظام تفرقوا في أنحاء الحجرة الواسعة، رفع طارق رأسه ليرى فتحات التهوية قريبة من السقف، والمصباح الوحيد ذا الضوء الباهت مدلى من وسط.

لمح مرتبة، استلقى عليها، زكمت أنفه رائحتها الزنخة، عاد يفكر لو أنه سلم جواز سفره وبطاقته الشخصية لأصبح في هذه البلاد بلا هوية فلو حدث له مكروه أو وقع في مشكلةٍ ما لن يعرف أحد جنسيته أو بلده، أمال رأسه فطالعته عينان جاحظتان ووجه طويل شك أن يكون هو الشاب الذي كان يتحدث عنهم منذ دقائق، ألقى طارق تحية المساء فرد الشاب بلكنته المصرية المائلة إلى أهل السواحل، دون أن يسأله طارق عن سبب تمسكه ببقاء الجوازات معهم فاه الشاب كلماته المصبوغة بالقلق:

- سعدون يريد ضمان عدم خروجنا أو مغادرتنا زوارة مهما طالت أيام وجودنا هنا ونكون تحت رحمته ورحمة صاحب الحوش.

شجعت مبادرته في تبادل الرأي معه فحدّق طارق في وجهه الممصوص وسأله:

- مصري؟

- دمياطي.

- طارق من أسيوط.

- أهلا وسهلا، أنا عربي.

- أنا موافقك يا أخ عربي.

- بالعقل يا أسيوطي، لا يهمنا ضياع المصاريف لكن افرض ألغي السفر، نعود إلى بلدنا كيف؟

- صحيح يا عربي، واجب نحتفظ بجوازاتنا حتى ليلة ركوبنا السفينة.

- لا، بل لما نكون واقفين أمامها، ساعتها نكون قد ضمنَّا السفر.

يصمت عربي فيلمح طارق إحدى عينه الحمراء من قلة النوم والأخرى مسبلة فيحجم عن إلقاء أسئلة أخرى واستمرار الحوار معه، يغفو تارة ويستيقظ أخرى ومن حين لآخر يتناهى لمسامعه صوت هبوب رياح البحر، ظل يتقلب على جنبيه محتضنا حقيبته الصغيرة، أنفه يلتقط روائح أجساد رفاقه المضمخة بالعرق، شخيرهم يبدد شعوره بالوحدة حتى علا صياح الديكة وسمع أذانا بعيدا، مرّ الوقت بطيئا وهو على حالته من التحديق في لا شيء، حتى تسرّب ضوء خافت من كوّة بأعلى الجدار فلوى عنقه يمينا ويسارا يستطلع المطرح ووجوه الممددين الغرباء من حوله، عربي لا يزال مستغرقا في نومه وصوت غطيطه يعلو من حين لآخر، تمنّى طارق أن يستيقظ الجميع ليتعرّف عليهم لكنه ظل مسترخيا وهو يؤكد لنفسه أن وقتا طويلا أمامه ليخالط مرافقيه، يبقى ساهمًا ومن حين لآخر ينصت لصوت الموج البعيد وصياح طيور البحر، يتمنى أن يخرج من الحوش ويتمشّى على رمال الشاطئ؛ يستمتع برذاذ الماء المنعش وهو يراقب بزوغ قرص الشمس من خلف الأفق الممتد.

***

-3-

رويدا ينسج النهار خيوط ضوئه الصافي فيطارد النور فلول العتمة، ومعها تراقب عيناه تلاشي الظلام فيودع أصدقاء أرقه نجوم برج السرطان، من رحم الأفق تولد الشمس والموج يصنع أشكالًا هلامية على قرصها الأبيض، تبدد أشعتها الوليدة سحب ذكريات أحداث سفره الطويل من معبر السلوم حتى ليلته الأولى بحوش الفضيل، فوجئ بعربي الدمياطي الذي بحث عنه ليلة البارحة ينام عن يمينه وكأنه يخبئ النعاس في جيب قميصه، مدّ طارق أصابعه ليطمئن على الكيس البلاستيكي الذي خاطه في جيب بنطاله، فخمس ورقات من فئة المائة دولار هي كل ما يمتلكه من نفقات حين تحط قدماه أرض جزيرة لامبيدوزا الإيطالية كما أفهمهم سعدون ثم يتدبّر أمر توجهه إلى كاتانزارو أو روما ومنها إلى ميلانو.

يتأكد من وجود الورقة الأخرى التي بها عناوين وأرقام هواتف الكثيرين ممن استقروا في ميلانو، وسيرسو عليهم ويقيم مع أحدهم مؤقتا لحين تعلقه بعمل.

رفع رأسه لتطالعه عشرات الأجساد ممددة وجالسة على ظهر السفينة التي شعر ببطء حركتها، قدّر طارق عدد من يرافقهم بما يزيد على المائة، أغلبهم أفارقة ونحو العشرين بشرتهم تميل إلى البياض، كأسماك السلمون ينامون مرصوصين، تتساند أكتافهم في تلك العلبة المفتوحة التي ارتضوا أن يُحشروا فيها لتعبر بهم البحر إلى ضفافه الأخرى.

يعتدل في جلسته، يخفق قلبه للمشهد الذي اتضحت له صورته المخيفة، ما تحملهم هو ورفاق هجرته لم تكن سفينة جديدة كما تخيلها في ظلام الليلة الفائتة بل سفينة كبيرة عجوز حافاتها مهشمة، وألواحها قديمة يخشى لو دق أحدها بكعب قدمه أن تنفلق، في مقدمتها حجرة الربان التي يغرغر منها صوت الموتور، شعور بخيبة الأمل يتلبس روحه القلقة، انتصبت قامته ليستطلع تلك الغرفة البعيدة في المقدمة، لم تتضح معالمها من كثرة

الأجساد المستكينة حولها، يخرج شاب أسود عاري الصدر، يلوّح لآخر في الناحية الأخرى من الحجرة، يسمع صوت هدير قوي، تبدأ السفينة في التحرك بحمولتها الكبيرة، يخرجه من مراقبة ما يحدث صوت من الخلف:

- أخيرا تم تصليحها.

في حدة يلوي طارق عنقه لذلك المتكلم فيواصل:

- من الليل ويحاولون إصلاحها، يا رب سهّل.

- كان فيها عطل؟

- أعطال لا عطل واحد، أهمها توقف المحركات.

يرتجف طارق، يشعر بقلبه يسقط في قدمه، يزدرد لعابه في صعوبة، يجحظ لشاب يبتعد عنه بمترين، يميل وجهه نحو الماء ويفرغ ما في جوفه، يعود ووجهه شديد الصفرة من دوار البحر، يلتفت إلى عربي مغمض العينين، يجلس جواره، يبتسم وهو يعلق:

- أملاتو في ستوماكو، بالإيطالي مريض في معدته، لابد أن أردد كل كلمة حفظتها حتى لا أنساها.

عربي يواصل نومه الهادئ فيقضي طارق وقته في تأمل المياه الزرقاء من حوله، يشاهد طيور النورس تحلق من بعيد، يدقق التحديق فتهتز حواف الشاطئ البعيدة، يندهش لعدم ابتعادهم طوال الليل لمسافة كبيرة في عمق البحر، حنق لعطل السفينة الذي أبطأها فلم تصل لعرض البحر بعد، يظل على حالته من التفكير حتى يقطعها غمغمة عربي، يبتسم له وهو يظن أنه يحلم، ارتعاشات جفني عربي تقلقه فيفرد كفه على جبينه، يرفع يده عن جلده الساخن، من زجاجة المياه يحاول أن يشربه، الماء يزبد بين شدقيه فينفث صدره آهة محمومة ويفتح عينيه في هدوء، ينهض جالسا قبالة طارق، يضع يده على رأسه:

- من نهار أمس وحرارتي مرتفعة.

- كان عليك تأجيل السفر يا عربي!

- لو أجلت ركوب السفينة ممكن أقضي أسابيع في الحوش.

تارة أخرى يتمدد عربي، تهتز السفينة وتهدر محركاتها وهي تتمايل، الشمس ترسل أشعتها الفتية فتلهب وجوههم وظهورهم العارية، ينتصب طارق واقفا، يفرد جسده في تلذذ، يستنشق نفسا عميقا يريح رئتيه ورياح البحر الهادئة تطير شعره الخفيف، في حذر يخطو بين الأجساد الجالسة وعيونهم المتوجسة ترمقه في قلق، وجوههم الواجمة تخفي أسرارا تريد الإفصاح عنها، لكنهم صامتون، آيسون، ليست كل الوجوه مألوفة لديه، أرجع ذلك إلى أن المرافقين له في السفينة من أحواش متعددة في زوارة أو غيرها، وعند السفر جمعتهم هذه العجوز التي تثير في نفسه الخوف بسبب سيرها البطيء، لكنه لا يبالي فالمحصلة واحدة، طالت أم قصرت ستصل بهم إلى بر الأمان، ومن هناك سيعرف الطريق إلى العمل والثروة في ميلانو وضواحيها الغنية، تدور عيناه في الوجوه السمراء من حوله، يوقن أن جميعهم ليسوا من بلد واحد، ربما من تشاد أو السودان أو النيجر، الكل يزحف في صحراء ليبيا معلقا أمله في التسلل إلى أوربا تاركين بلادهم الفقيرة إلى البحث عن فرصة عمل والثراء.

نسجت تلك الأفكار خيوطها العنكبوتية فافترت شفتاه عن ابتسامة باهتة لنفسه التي ليست أحسن حالا منهم، فضوله دفعه ليرسل نظراته فتحوم بين رفاق السفينة، يحذر تمايل قامته غير المتزنة، تصطدم عيناه بجسد ضئيل يقعى في سكون، يجلس قبالته، بشرته البيضاء تشجعه على إلقاء تحية الصباح، فيهز الولد رأسه، تأمّل وجهه الذي لوحته الشمس، بادره بالسؤال:

- اسمك؟

- حجّار.

- مصري؟

- فلسطيني.

قالها الولد وتلفت حوله في خوف من أن يسمعه أحد، دقق طارق في هيئته فتأكد من قسمات وجهه أنه فعلا شامي، همس طارق:

- من القدس؟

- من قرية اسمها يعبد بجنين، سمعت عنها؟

- بصراحة، سمعت عن جنين لكن لا أعرف قراها.

- يعبد مشهورة عندنا، يعرفها كل فلسطيني؛ فهي البلد التي استشهد فيه عز الدين القسّام عندما قاتل الإنجليز سنة خمسة وثلاثين.

صمت حجار فطأطأ طارق رأسه خجلا من جهله أمام الفتى الفلسطيني فإنه لم يسمع مطلقا عن قرية يعبد هذه وهو الذي درس الجغرافيا وقرأ في التاريخ الكثير من الكتب، ولا يدري عن القسام إلا أنه اسم لتلك الصواريخ التي سمع في نشرات الأخبار أن حماس تطلقها على المستوطنات الإسرائيلية.

قطع حجار الصمت وعاد يتلفت وهو يهمس:

- لكن، احذر يا رجل أن يعرف أي أحد جنسيتك وإلا يرحلونك على الفور.

يهز طارق رأسه إشارة الفهم ويعود ليسأله:

- كنت في أي حوش؟

- في حوش سعدون نفسه.

- رأيت مصريين في الحوش؟

- من أسبوعين واحد حضر عرفت أنه مصري ومن الصعيد، لكنه ساكت طول الأيام حتى ركبنا السفينة بالليل.

- معنا هنا؟

- الجالس هناك.

التفت طارق إلى شاب يوليهم ظهره ذي جسد ممتلئ، ميّز قميصه الضيق بلونه الأزرق وقرر أن يتعرّف عليه عند سنوح أول فرصة لكنه عاد يسأل الشاب الفلسطيني قبل انصرافه:

- تستطيع أن تتحدث الإيطالية؟

- تعلمت بعض الجمل لكن لدي عناوين لأقارب لي في جنوة.

إجابة حجار السريعة شجعته ليسأله عن سبب سفره وهو يتوقع أن يجيبه أن الإسرائيليين قتلوا عائلته وأنه مهدد فلم يجد بدا من الهجرة، لكنه فوجئ بحجار يقول في صراحة:

- أنا وحيد أبي، رحمه الله، كان يشارك عمي في عصّارة زيتون وعندما مات أبي، أعطاني عمي ألف دينار أردني مقابل نصيبي في العصّارة.

يزدرد طارق لعابه وقد استهواه الحوار مع حجار:

- والألف دينار تساوي نصيبكم في العصارة؟

- ولا حتى ربع نصيبنا لكن ما باليد حيلة، لم أتخيل أن أهاجر لكن ما حدث لبيتنا كان أفظع.

- عمك طردك منه؟

- لا، في هجوم لجيش الاحتلال هدموا واجهة البيت فهربت منهم وكان قناصتهم يتصيدون شباب البلد من فوق السطح، بعدها فجّروه ورحلوا ومن يومها مكثت في بيت عمي إلى أن طردني هو الآخر.

تنقبض روح طارق لما روى حجار فربت على كتفه وهو يسأله في عطف:

- ورحلت من بعدها؟

- عملت فترة في فرّامة للدخان حتى تعرفت على شخص اتفقت معه على الهجرة.

- فرّامة دخان؟

- توجد في بلدنا مزارع للدخان العربي، بعد جمع أوراقه يُفرم ويجفف ويلف ويصبح كالسجائر.

ازدرد طارق لعابه وهو مندهش لتلك المعلومات الغريبة، تمنى أن يطيل المكوث معه لكن خبر الصعيدي الذي عرف أنه يرافقهم جعله ينهي حديثه ويستأذنه:

- ربنا معك يا حجّار، وأي شيء تحتاجه أنا تحت أمرك، لكن من أين تسللت إلى زوارة؟

باغته طارق بالسؤال قبيل انصرافه فمط ّحجار شفتيه وهو يجيب:

- من الصعب السفر إلى قبرص فنصحني البعض بأن الهجرة عن طريق ليبيا أضمن وأوفر.

- ودخلت مصر من معبر رفح؟

هزّ الولد رأسه وافترت شفتاه عن ابتسامة مبتورة وهو يجيب في قلق:

- وصلت غزة، وهناك تسللت من أحد الأنفاق إلى غرب الحدود وفي سيناء توصلت لمن يدبر لي جواز سفر ويسهل لي الوصول إلى الإسكندرية ومنها إلى معبر السلوم.

في صعوبة ازدرد طارق لعابه لما يرويه حجار بعفوية وكأن الأمر معتاد عليه، وهو الذي حسب وصوله إلى بلد مثل زوارة شيئًا لم يفعله أحد غيره من قبل، هزّ رأسه دون أن يعلق فابتسم الشاب الصغير في خفوت، تأمله طارق فشعر بحنين جارف أن يرافقه حجار إلى حيث يجلس جوار عربي، لكنه مسح على شعره البني الكثيف وابتسم له ثم نهض مستمتعا بانتصاب قامته، استنشق نسماتٍ مضمخة برائحة البحر، اصطدمت نظراته بعشرات الوجوه والأجساد العارية والمرتدية قمصانا وفانلات خفيفة، التفت نحو المصري ذي القميص الأزرق لكنه لم يره، مسحت عيناه كل المحيطين بحجرة القيادة فلم ير بينهم القميص الأزرق، فقرر العودة والمكوث جوار عربي الدمياطي إلى أن يظهر الصعيدي الذي تاقت نفسه للتعرف عليه عاجلا أو آجلا، فلا أحد يمكنه أن يختبئ في سفينة لا تحمل سوى أجساد مرصوصة تضم بين جوانحها نفوسا مثقلة بكل هموم العالم وتسعى للخلاص منها بالانسلاخ من بلادهم التي ولدوا فيها والزحف نحو بلاد غريبة.

***

-4-

ما كادت قدمه تخطو في حذر كي لا يدوس على يدٍ أو قدم أحدهم حتى علا صوت في مقدمة السفينة قرب حجرة القيادة، يظهر شاب أسود مفتول العضلات يحمل آخر بين ذراعيه يتنفس في صعوبه والدماء تسيل من فمه وآخر قصير يحاول اعتراض طريقه، لكن ذلك القوي يواصل تقدمه نحو حافة السفينة وهو يرطن بكلمات غير مفهومة، جحظت عينا طارق وسقطت أحشاؤه رعبا عندما رفع الأسود الضخم الآخر المريض وألقاه في الماء ورفيقه القصير يائسا يحاول منعه ويصرخ مناديا، الشاب القوي يبصق في وجه القصير الباكي ساحبًا من جراب جلدي آلة حادة طويلة تشبه الساطور يلتمع نصلها، يشهرها مهددا ثم يعلو صوته المسعور بكلمات محذرة ويتركه نازلا إلى غرفة القيادة.

في دقيقتين حدث المشهد والملتفون حولهم تزيغ نظراتهم الخانعة ولا أحد منهم جرؤ على الاعتراض وإلا سيلحق بذلك المريض، السفينة تبتعد وطارق لا يصدق ما رآه منذ لحظات، دارت رأسه نحو آخر السفينة، ارتعشت شفتاه للشاب الملقى في الماء، أبصر ذراعيه تضربان الموج في وهن، ظل يحدق حتى كادت عيناه تخرجان من محجريهما، لم يلبث أن اختفى جسد الشاب، رفيقه يضرب خشب السفينة بقبضته ويبكي في حرقة ولسانه يتلعثم بكلمات عبثية، وجد طارق نفسه يخطو نحو الشاب الملتاع، جلس قبالته وفي حلقه غصّة تكاد تخنقه، الشاب وجهه كوجوه أهل أسوان العربية لكن بشرته شديدة السواد كزيتونة، والعبرات تنهمر على وجنته المرتعشة، تردد طارق في محادثته لكنه قرر في النهاية أن يواسيه ولو لم يفهم لغته، لكنه فوجئ بالشاب يردد في صوت متقطع بلكنة سودانية:

- يرحمك الله يا عبدالكريم.

اتسعت عينا طارق للكلمات العربية التي نطق بها الشاب المنكسر وفهمها بسرعة فربت على كتفه وهو يواسيه:

- ما ضاع قد ضاع واهتم بنفسك.

يتماسك الشاب وهو يمسح دموعه، من زجاجة ماء صغيرة يبتلع جرعات قليلة، نظراته الزائغة جعلته لا يهتم بمن يحدّثه فواصل:

- يرحمه الله.

- من السودان؟

- من تشاد.

ازدرد طارق لعابه لرد الشاب فعض شفتيه في أسى ووجد لسانه يتشجّع ويسأله:

- اسمك؟

- رحيم.

- من أنجمينا يا رحيم؟

- أنجمينا العاصمة، لا من بلد شمالا بالقرب من ليبيا اسمها أوزو.

ابتسامة خفيفة تفتر بها شفتا طارق للغة العربية الواضحة بتلك اللهجة الغريبة فاستوعبها برغم قلب بعض الحروف مثل الحاء هاء؛ فقد عانى طوال أيامه في حوش الفضيل من كلام الأفارقة غير المفهوم لكنه ها هو الآن يتحدث مع أحدهم بلغة يفهمها جيدا، فتحفز وألقى سؤاله على رحيم:

- أهو صاحبك؟

أطرق رحيم رأسه وهو يجيب بكلمات مصبوغة بالحزن:

- عبدالكريم صديقي ومن بلدي، أبي وأبوه من عرب البقارة.

- تربون وترعون البقر؟

- نعم، لكن الوباء انتشر فيها منذ سنين فقلت الرءوس حتى فنيت، مات أبي من حزنه على ماشيته أما أبوه فقد استمر يزرع أرضا يملكها.

- ولماذا لم تعمل أنت وابنه عبدالكريم معه؟

- تنازع إخوته على الأرض فقررنا الهجرة والعمل.

- في إيطاليا؟

- كانت محطتنا الأولى ولكن منها إلى فرنسا.

صمت طارق مستأنسا الكلام مع رحيم برغم هلعه على إلقاء صديقه المريض في البحر فصمّم على استمرار الحوار معه:

- ولِمَ فرنسا؟

- معظمنا يتحدث الفرنسية يا...

- طارق، من مصر.

- كثير منا يتحدث الفرنسية بجانب العربية ولهجات أخرى كثيرة.

- وماذا حدث لصاحبك؟

- في الأيام الأخيرة مرض أثناء إقامتنا في حوش سعدون لكنه خبأ الخبر حتى ركبنا السفينة فأصابه دوار البحر بغثيان مصحوب بالدماء، عرف مساعد القائد بمرضه فرأيت ما

رأيت.

نثرت شفتا رحيم الكلمات الأخيرة في أسف ممزوج بالخوف، قرأ طارق الرعب في عيني رحيم الدامعتين فقد يكون مصير أي منهم انقذافه في البحر إن مرض أو مات فلا إسعاف لمريض ولا قبر لميت سوى الماء فهزّ رأسه ومطّ شفتيه وهو يربت على كتف رحيم العاري:

- أما كان من الأفضل أن تبقى في بلدك وتعمل بها؟

- عانينا سنوات من البطالة بعد أن ماتت أبقارنا وبيع السليم منها، ماذا أفعل وقد دفعتني الحاجة للهجرة إلى ليبيا منذ سنتين.

- أنت هنا من سنتين؟

- عملت في كل شيء حتى جمعت ألفي دينار، دفعتهم لسعدون ليساعدني على عبور البحر.

تارة أخرى أطبق طارق شفتيه وهز رأسه في أسى، طفق يفكر في هذا الشاب الذي يقاربه في العمر تقريبا، حاله أهون بكثير منه، على الأقل دفع لسعدون ألفي دينار من حر ماله الذي عمل به طوال إقامته في ليبيا ولكن طارق حاز أعز ما تملكه أمه، عقدها بقية شبكتها القديمة وما جمعه من عمله كأجير في إحدى المكتبات، أخذ كل ما يحتاجه البيت وهاجر، لا يدري هل سيعوض أمه عن عقدها اليتيم الذي باعته من أجله ويعوض إيهاب ورضوى حرمانهما، أم سيعود وكأنك يا أبو زيد ما غزيت على رأي المثل الذي كانت تردده جدته دائما.

مد يده لرحيم فصافحه الشاب الحزين، هز رأسه، مال نحوه وهو يوصيه:

- اهتم بنفسك الآن وادعُ لصاحبك بالرحمة.

بنفس غشيها الوجوم يعود طارق إلى مكانه جوار عربي، تمنّى ألا يكتشف أحد أن رفيقه الدمياطي مريض؛ حتى لا يواجه نفس مصير التشادي المفجع، تهالك جوار عربي الذي فتح عينيه في استرخاء وسأل:

- فيه حاجة؟

ترتعش شفتا طارق وهو يخبره:

- واحد تشادي مريض، رموه في البحر.

يغمض عربي عينيه في وهن وابتسامته الصفراء ترتسم على شفتيه وقال في برود:

- أزعجك المنظر؟

- أزعجني؟! كدت أموت من الخوف وصديقه حاول أن...

- هنا المريض لا علاج له والميت لا مدفن له إلا البحر.

- وأهلهم يا عربي؟

- يا سيدي، سمعنا كلاما كثيرا عن شباب ماتوا في طريق الهجرة ولحمهم في بطون السمك، ربنا يسترها، ما دام الواحد منا ركب السفينة؛ راهن على حياته، إن مرض أو مات؛ لا رفيق يرحمه ولا قبر يضمه إلا البحر.

- لكن صديقه له حاول إنقاذه وكان يبكي عليه.

- وبعد فترة كل واحد في حاله، اسمع كلامي يا ابن زياد واهتم بنفسك.

- ابن زياد!

- كل واحد عندنا اسمه طارق نقول له يا ابن زياد، تحسبني جاهلا، طارق بن زياد قال لجنوده بعد حرق السفن: العدو أمامكم والبحر خلفكم. وأنت هنا وسط البحر، إما تحفظ حياتك يا صاحبي أو...

- يأكلني السمك.

أذهلت كلمات عربي نفس طارق الموجولة فازدرد لعابه في صعوبة وهو يتفرّس في وجه صاحبه الدمياطي والشمس تلهب ظهريهما بأشعتها القاسية، تهتز السفينة من حين لآخر ومع دوران دفتها أدار طارق دفة الحديث مع عربي في محاولة لنسيان ما رأى:

- تعرّفت على فلسطيني معنا في السفينة.

في لا مبالاة يجيب عربي وهو يهز رأسه:

- وبعد؟

- تصوّر، بعد موت أبيه طرده عمه من عصّارة الزيتون وأعطاه مبلغًا وقال له فارقنا وابحث لك عن عمل بعيد، والإسرائيليون هدموا بيته و...

يفاجأ طارق بضحكة عربي تعلو ثم يسعل في شدة وعندما هدأ صدره قال:

- أعطاه مالًا وقال له: ابحث عن شغل؟ حظه أحسن من حظي.

- كيف؟

- أحكي لك ولكن بعد الأكل.

رفع طارق وجهه فرأى شابا طويلا يمسك بين يديه سلة بلاستيكية فيلقي رغيفا لكل واحد منهم وعلبة تونة لاثنين حتى حان دورهما فأمسك طارق بالرغيف الجاف وفتح عربي علبة

التونة وطفقا يأكلان حتى لحس عربي بلسانه بقايا الزيت من قعر العلبة ثم ألقى بها في البحر، شبك أصابعه خلف رأسه ورفع عينيه إلى السماء فأسند طارق رأسه على كفه منتظرا أن يروي عربي شيئا عن نفسه.

***

-5-

- أبي نجارٌ، يده تلف في حرير.

قالها عربي وهو يخرج علبة سجائر من جيب بنطاله الجينز، يحاول أن يشعل عود الكبريت لكن هواء البحر يطفئه، أمال رأسه وانثنى بظهره الرفيع حتى تمكن من إشعال السيجارة، برغم علمه أن طارق لا يدخن إلا أنه مد أصابعه بواحدة فأشاح بوجهه منتظرا أن ينفث عربي النفس الأول ثم يواصل حكايته، زرّ عينيه وهو يكمل:

- أصحاب مصانع الخشب تهافتوا عليه، كافح حتى امتلك ورشة صغيرة، ومع الأيام كبرت واستكمل عدته من مناشير وخراطات إلى غيره لكن، ماتت أمي الله يرحمها.

يهز طارق رأسه وهو يردد:

- الله يرحمها ويرحم أمواتنا جميعا.

- كان عندي وقتها تسع سنين لما تزوج أبي من إنسانة طيبة هي زينب، عاملتني كابنها لأنها لم يكن لها نصيب في أولاد.

يصمت عربي وهو يدفع من منخره دخان سيجارته، يهز رأسه في حزن ممزوج بالأسف، يطول صمته فبادأه طارق:

- تزوج عليها؟

- لا، ماتت، ماتت أحن مخلوقة عليّ بعد أمي.

- الله يرحمها، وكل واحد ينال نصيبه.

- أبي طيّب ورضي بنصيبه.

- وبعد؟

- في يوم دخلت علينا في المصنع أرملة معها ولدان وبنت، طلبت من أبي عمل فراشين، تكررت زيارتها حتى بعد أن سلمنا لها طلبها، كانت تعانقني وتقول أني غالٍ مثل أولادها، ولا أعرف كيف لفت ودارت على أبي حتى تزوجها وعاشت معنا هي وأولادها، طبعا البيت ضاق علينا فاخترت لنفسي مكانًا فوق السطوح أنام فيه وطول النهار أكون في المصنع.

يصمت عربي، يمط شفتيه، يزفر نفسًا، تزيغ عيناه كأنه توقف عند محطة مخيفة من أيامه السابقة لكنه تشجّع واستكمل بصوت خفيض ممزوج بالانكسار:

- لبست جلباب المسكنة حتى تمكنت من أبي، انتهزت فرصة حاجته لمبلغ كبير يدفعه لتاجر خشب وأعطته له، لكن في المقابل كتب لها نصف المصنع ومن يومها ظهرت قلة أصلها.

- عاملتك بسوء؟

- كلمة سوء قليلة على ما خططت له، تحكمت في كل شيء، أصبحت تجلس في المصنع وتشرف على الداخل والخارج، جعلت الولدين في الورشة طول الليل والنهار ولما اعترضتُ زعقت فيّ وفي أبي الطيب، حتى كان النهار الأسود.

- كتب البيت باسمها؟

- لا، لكن بنتها استغلت وجودي على السطح وهي تنشر الغسيل، طلبت مني أربط الحبل ولما قربت منها صرخت وضربتني بالقلم على خدي مدعية أني عاكستها، طلعت أمها وانهالت على جسدي بالخُف المنزلي وشاركها أولادها ولما أخبرت أبي شهدوا عليّ كلهم بأني كنت أريد...

- يا ساتر يا رب ولكن كيف انخدعت فيها؟

- المثل يقول: الحية تخلف حية، انخدعنا فيهم وطردتني من البيت، وأبي لا حول له ولا قوة ولما عارضها وعلا صوته، هددته بأن تطلب الطلاق وطبعا تستولي على نصيبها من المصنع وأبي روحه فيه.

- هجرت البيت؟

- هجرت دمياط كلها وسافرت عند عمتي في رشيد ولما استخرجت جواز سفر، قررت أهاجر لإيطاليا وأعمل في مصانع الخشب هناك.

- استر يا رب، من صاحب مصنع إلى أجير في بلاد غريبة.

- نصل الأول لبر السلامة وبعدها ربنا يفرجها من عنده.

- إن شاء الله، تصل وتعمل وتصبح صاحب مصنع كبير يا عربي، على الأقل لك صنعة أما أنا فمستعد أن أعمل أي شيء، فاكينو أو إيل كواكو في رستورانتيه.

يقطب عربي حاجبيه فتتسع ابتسامة طارق وهو يترجم:

- شيّال أو طباخ في مطعم.

- طول أيامنا في الحوش وأنت تقرأ وتردد كلمات إيطالية، معك الكتاب؟

- للأسف تركته في الحقيبة.

- وشنطنا كلها تركناها في الحوش، من يصدق أننا نسافر من بلد لبلد بدون شيء يسترنا؟!

- ولا حتى البسابورتو.

- والله يا أخي ما كان غرضي السفر، لكن الظروف تحكم.

- أنا مبسوط أنك فتحت لي قلبك وتكلمت، طوال إقامتنا في حوش الفضيل كنت ساكتا وتتكلم في الأمور العامة فقط.

- في الحوش ممكن نهاجر أو نلغي رحلة السفر ويعود كل واحد لبلده، أما هنا في السفينة فالفضفضة تريح النفس وتقتل الوقت.

- على الأقل قصرنا نهارنا الطويل.

يبدو الاهتمام في عيني طارق وهو يحذّر عربي:

- احذر أن يعرف أي واحد أنك مريض.

- لا يرمون أي شخص إلا إذا مات، أو على وشك الموت، قبل سفري من الإسكندرية عرفت معلومات خطيرة عن رحلتنا، حدثتك عن بعضها لما كنا في حوش الفضيل.

- ربنا يسترها.

بذراعه يخفي طارق عينيه اتقاء أشعة الشمس، يسترخي في رقدته ومعدته تقرقر طالبة المزيد من الطعام، لكنه صبر على الجوع ممنيًا نفسه بتناول وجبة العشاء بعد غروب الشمس وربما تسرع السفينة ويتناولون طعامًا مشبعًا عندما ترسو قبالة أحد الشطوط، يفكر فيما قاله الفلسطيني حجّار، ورفيق رحلته عربي الدمياطي ويلتمس لهما العذر في ركوب المهالك من أجل الهروب من واقعهم المحموم بالمشاكل وضياع الحقوق، يتأمل حاله فيجد نفسه أحسن منهما، ربما يكون الأفضل من كل المهاجرين في تلك السفينة الهرمة؛ فلا زوجة أب طردته من ملكه، ولا عم ظلمه وضاق بوجوده، ولم يفقد رأس ماله مثل رحيم التشادي، فقد كان يعيش مع أمه وأخيه وأخته الصغيرة، يعتمدون على معاش أبيه العامل على إحدى عربات نزح آبار الصرف التابعة لمجلس المدينة، مات في سنة إنهاء

الخدمة بعد معاناة من عدة أمراض وتركه بعد أن تخرّج في كلية الآداب قسم الجغرافيا، يعول تلك الأسرة الصغيرة لكنه ضاق من بطالته وجلوسه في البيت، لا يحسن إلا الكسل وانتظار الفرصة فاعتورته الغيرة من جيرانه ومعارفه الذين سافروا إلى إيطاليا وفي سنوات قليلة بنوا العمائر وكونوا ثروة تنجيهم من براثن العوز والحاجة، فقرر أن يصنع فرصته بالهجرة لتحقيق ذاته المنكسرة من وطأة الفراغ وضيق ذات اليد.

يظل على حالته من التفكير إلى أن أغمض عينيه ليقطع الوقت في النوم حتى يقبل الليل بهدوئه ويمارس هوايته المفضلة في مراقبة نجوم برج السرطان ويحادثه كعادته منذ أن كان يذاكر على سطح البيت أيام الثانوية حتى بعد دخوله الجامعة.

***

على فراشه ينام، الهواء ينساب عبر النافذة البحرية، يحلم بعمله كمعلم للجغرافيا والتاريخ في إحدى المدارس، يفرد خريطة العالم ويشرح لتلاميذه أهمية موقع الوطن العربي، يروي لهم تاريخ كفاحنا ضد الغزاة ثم يأتيه الراتب الشهري فيقسّمه على أمه وأخيه إيهاب وأخته المرحة رضوى التي اعتادت أن تنادي عليه كلما أرادت إيقاظه، إنه يسمع صوتها الرفيع الرنان يردد اسمه: طارق، طارق.. وإن لم يفتح عينيه تسكب على وجهه القليل من الماء ثم تضحك وتجري خارج الغرفة، ها هي تقترب منه وفي يدها كوب الماء، تدلقه في سرعة وضحكتها تزين وجهها المستدير.

يفتح عينيه لرذاذ الماء على وجهه، بلسانه يبلل شفتيه فيذوق طعم المر الممزوج بالملح، ينتتر ناهضا للصياح والهياج الذي انتاب مرافقيه في كل مكان، السفينة تعلو وتهبط والماء يهاجم مقدمتها، أمسك بالحافة الخشبية، عربي نائم، الرياح تصفر وأحد الخارجين من غرفة القيادة يزعق في الجميع بلغته الغريبة، آخر جواره يعلو صوته محذرا:

- الزموا أماكنكم، من يسقط لن نستطيع إنقاذه.

البحر الهائج يجعل السفينة تميل فجأة على جنبها وأحدهم في أعلى المقدمة يفقد توازنه ويسقط في الماء وهو يصرخ، صوته يضيع مع ابتلاع البحر لجسده الضئيل، يشاهده طارق والمياه تغمره فلا يرى سوى يديه تضربان في قوة ولا مغيث له، الجميع أقعى في قعر السفينة ومنشغل بثبات جسده، يستحصن طارق بما حفظ من أدعية ويردد:

- يا رب، يارب، أنقذنا يا رب.

بكلتا يديه يتشبّث بحافة خشبية وجسده ينتفض، من حين لآخر يتناهى لمسامعه أصوات عبثية يتمتم بها عربي ويندهش من عدم استيقاظه برغم المياه المالحة التي أغرقت ملابسهم، يمد يده، يلامس جبين عربي فتتسع عيناه لجسده المحموم، يدرك أنه هذيان الحمّى، في سرعة يلملم شوارد فكره، تلفت يمينا ويسارا حتى لا يتفطّن أحد إلى مرض رفيقه فيلقونه في البحر، يقترب من عربي، يخبئ وجهه خلف ظهره، دقائق كأنها الدهر مرت حتى شعر باستقرار السفينة واعتدال حركتها.

يفتح عربي عينيه، في بطء يجلس، يمسح الماء عن وجهه وصدره، يتأمل ملابسه المبلولة يتلفت حوله، بوجه شاحب يتأمله طارق ويجيب عن عينيه المستفهمتين في قلق:

- عاصفة شديدة وراكب سقط في البحر.

- الحمد لله، مجرد ريح وانتهت على خير، آه.

يتأوّه عربي ويمسح جبينه، بعينين حمراوين يغلبهما النعاس يدقق النظر في وجه طارق وتخرج كلماته في انكسار:

- لو حدث لي مكروه، ورقة العناوين وأرقام الهواتف وخمسمائة يورو في كيس بلاستيكي في جيبي يا طارق.

- يمكن أنا يحصل لي مكروه أنا أيضًا، على العموم كيسي مربوط في الحزام.

- أنت لك أم وأخ وأخت كما قلت لي لكن أنا مقطوع من شجرة.

- وأنت، لك أب ينتظرك وإن شاء الله ترجع له ومعك آلاف الجنيهات تفتح بها ألف مصنع خشب.

تفتر شفتا عربي عن ابتسامة يشوبها الشحوب كوجهه لمبالغة رفيقه، يسحب سيجارة، يتحسّس علبة الكبريت لكن المياه أفسدتها، ألقى السجائر جانبا، تمدد مستلقيا على ظهره وذراعه تقي عينيه وهج شمس الظهيرة، مخالب الحيرة تنشب أظافرها في نفس طارق، لو طلب من قائد السفينة دواء لأمر مساعده ذا القامة الطويلة على الفور بإلقاء المريض في البحر، ظل ساهما حائرا فيما يفعل حتى شعر بمثانته تكاد تنفجر، خطا نحو حجرة القيادة، من حين لآخر يلتفت وراءه، اطمأن لعدم انتباه المجاورين لعربي، سار نحو مقدمة السفينة، طلب من الواقف قبالة الباب أن يدله على حمّام فأشار إلى السلم الخشبي، في حذر ينزل حتى انتهت الدرجات إلى باب خشبي مغلق، رمقه في غيظ، مد يده ليفتح الباب فسحبها في سرعة لخروج شاب أسمر ذي لحية خفيفة، لبرهة تأمله طارق فلمح فيه سحنة غير أفريقية فسأله:

- أسواني؟

- سوداني من دنقلا وأنت يا زول؟

- مصري و...

يقاطعه السوداني بكلمته الخفيفة وهو يصعد إلى سطح السفينة:

- اقض حاجتك بسرعة واحذر أن تقع يا زول.

يبتسم طارق لوجه السوداني البشوش ويده تشير إليه بسرعة الدخول، يفتح باب الحمّام، تزكم أنفه رائحته العفنة، ما إن يتحرر من سرواله حتى يزخ شلالا نحو شق صغير كاد أن

يتقيأ مما لمحه فيه، خرج وهو يشعر براحة لا حدود لها، من فتحة الباب الموارب يلمح حجرة القيادة، يميل عنقه، يختلس النظر فيرى شابا يخفي عينيه خلف نظارة شمس سوداء كبشرته القاتمة، نفس الشاب الذي كان يبيت معهم في حوش الفضيل ويغيب عنهم النهار في أغلب الأيام، هو الذي يقود السفينة جواره يجلس ذلك الضخم مفتول العضلات يتمنطق بحزام سميك وإلى جانب فخذه يستقر الغمد الجلدي بداخله ينام ساطوره الكبير حولهما براميل صغيرة تفوح منها رائحة الديزل.

***

-6-

ضربة أخرى من ضربات القدر لكمت نفس طارق بعد أن أيقن أن الذي يدير السفينة ليس قبطانًا كما كان يعتقد بل واحد من المهاجرين، علموه في زوارة قيادة السفينة ودربوه على توجيهها، ارتجفت روحه وهو يراه يرفع زجاجة الويسكي نحو فمه ويتجرع ما فيها، ازدرد لعابه فشعر بتوالي الغُصَص التي تكاد تخنق روحه المصدومة لمصيرهم المرهون بين قائد سفينة سكير وحارس لا عمل له سوى إطعام أسماك البحر بأجساد المرضى والموتى وإن اعترض أحد يجز رقبته بذلك السيف العريض ويلحقه بأصحابه.

خشي أن يراه أحد فتراجع بظهره خطوة وخطوتين حتى لامست قدماه أولى درجات السلم الخشبي، يدٌ قوية تقبض على ذراعه، تجذبه لأعلى فصعد على الفور وما إن رفع رأسه حتى اصطدمت عيناه بصدر عارٍ تبرز عضلاته من فتحة القميص ووجه يبتسم في بساطة، يزدرد لعابه للسوداني الذي كلمه بالعربية أمام الحمّام، يرفع سبابته الطويلة مثل قامته ويهزّ رأسه التي يقرّبها من طارق وهو يقول في نبرة محذرة:

- إن احتجت الحمام ثانية، لا تقف أمام حجرة القائد فإن رآك هو أو مساعده قد يلقيانك في البحر.

صفعت جملة السوداني الطويل نفس طارق الخائفة فازدرد لعابه وجحظت عيناه، يهز رأسه مرات ويكرر:

- شكرا.

- اسمي عشاري.

- وأنا طارق.

- أول مرة يا زول.

يتراجع طارق دون أن يرغب في استمرار محادثة الشاب الطويل الذي يفرض نفسه عليه، يرفع يده إشارة على رغبته في العودة لمكانه، يتنحّى عشاري ليسمح بمرور طارق الذي يتوقف لدندنته الهادئة:

- أنا عشاري، تمساح النيل، الطويل الطويل، دائم الرحيل.

يبتسم طارق للأغنية التي يرددها عشاري في لهجة خفيفة غريبة لكنها عربية، صمم أن يعود لعربي لكن عشاري يقف قبالته ويقول:

- هل سمعت عن زول يركب البحر أربع مرات وفي كل مرة يعيدونه؟

- أربع مرات؟

- وفي كل مرة يمسكني الصليب الأحمر ويرحلني!

- ولا يعتقلونك في سجونهم؟

- الصليب الأحمر ليس لديه معتقلات إنما يحجزونك لحين ترحيلك.

- ترحيلي؟ بعد كل ما نقاسيه في السفر، يمكن أن نعود ثانية؟

- وثالثة ورابعة.

- قل لي يا أخ عشاري، بعد أن نصل للساحل ماذا يحدث؟

- لن نصل إلى البورتو أو أي بورتو، تتوقف السفينة بعيدا عن البر ثم نقفز في الماء ونسبح حتى الشاطئ؟

- ومن لا يعرف العوم؟

- يغرق يا ذكي.

قالها عشاري وهو يطلق ضحكة رفيعة لفتت انتباه المحيطين بهما، لكن ما أفصح عنه من أخبار استهوى تفكير طارق الذي أعجب بطريقته في الحكي ولهجته السودانية الساخرة التي تثير الضحك فعاد يسأله:

- وفي المرات السابقة، سبحت إلى الشاطئ؟

- كأمهر تمساح في العالم ثم قبضت عليّ شرطة السواحل الإيطالية ونقلتني طائرة الصليب الأحمر من لامبيدوزا إلى جزيرة اسمها كوروتونيا ثم رحلوني إلى السودان.

- وطوال أيامك كيف كانوا يعاملونك؟

- كإنسان، يقدمون لنا الطعام والمكان المريح للنوم لحين ترحيلنا.

- ولم تدخل إيطاليا؟

- في المرات السابقة لا، ربما هذه المرة.

- متعلم يا عشاري؟

- كنت في كلية الآداب جامعة الخرطوم، قسم اللغة الإنجليزية.

تتسع عينا طارق دهشة لعشّاري الذي ظن أول الأمر أنه كغيره من هؤلاء السود، بلادهم المدقعة قذفتهم فاختاروا الهجرة إلى الشمال على الموت في بلادهم فقراء فازدرد لعابه وعاد يسأله:

- ولِمَ هجرت كليتك ولماذا لم تعمل في بلدك دنقلا على ما أخبرتني؟

- أنا أصلا من دارفور، أبي من الأبالة.

- يربي الإبل؟

- قتله الجنجويد واستولوا على نياقه وجماله فهجرت أمي مزرعتنا إلى أخوالنا في دنقلا وتربيت هناك، وتولى خالي الطيب محمد الإنفاق علينا أنا وأمي وأخي الأصغر، تركت الجامعة لأعمل وأنفق على أسرتي، جرّبت الكثير من الأعمال ولم أفلح في أحدها فقررت الهجرة.

- والعمل في التدريس أو أي شركة أخرى؟

انقلبت سحنة عشاري السمراء المبتسمة إلى غضب ممزوج بالحزن، فقطب حاجبيه ومط شفتيه الغليظتين وخرجت كلماته رفيعة وهو يكز أسنانه البيضاء:

- صورة أبي المقتول أمامي لم تفارق خيالي للآن؛ لا أريد العيش لا في دارفور أو دنقلا ولا السودان كلها.

يزدرد طارق لعابه وهو يهز رأسه لدوافع الهجرة التي رآها مكررة مع كل شاب تسنح الفرصة ويحادثه، برغم التزام الجميع الصمت أثناء إقامتهم في الحوش فإنهم في السفينة يفصحون عن حياتهم وكأن كلا منهم يرغب في إخبار الآخرين عن سيرته لئلا يموت فلا يعرفه أحد، قرر إنهاء حواره مع عشاري فمد يده مسلما:

- فرصة سعيدة يا عشاري، صدقني، ظروفك كحالي وربنا يسترنا جميعا.

صمت عشاري؛ فلم يتوقع سرعة إنهاء الحوار وهو الذي لا يكف عن الكلام فتركه طارق وتخطت قدماه النائمين على ظهر السفينة، والمستيقظون منهم يتبادلون الأحاديث فيما بينهم كطنين النحل، توقف وملأ رئتيه بهواء البحر الطازج فخفف من التشاؤم الذي ملكه

من جراء اصطدام نفسه المغمومة بأحجار الواقع المفجع، نوبة من ندم انتابته على تركه بيته وأمه وإيهاب ورضوى المقبلة على الصف السادس الابتدائي.

رجحت كفة حاجتهم إليه على كفة فراقهم وهجرته المحفوفة بشتى صنوف المهالك مما سمعه من مرافقي السفينة، أسف على عدم تحليه بالصبر حتى يجد عملا مؤقتا إلى أن يمسك بعمل دخله أكبر لكنه استعجل الغنى وضحّى بالمال والراحة، وقد يضيع في البحر إن لم يحسن قائد السفينة السكير العربيد توجيهها نحو إحدى الجزر الإيطالية ومنها يتجه إلى ميلانو إن لم يقبض عليه رجال الصليب الأحمر.

في عنف اعتصرت أصابعه حافة السفينة، هز رأسه لمياه البحر ذات الزرقة الداكنة، يرقب الأسماك السابحة في سرعة، تجحظ عيناه لزعنفة كبيرة لسمكة قرش تظهر بين الأمواج المتلاطمة ثم تختفي؛ منتظرة أن تجود السفينة بأحد ركابها لتتغذى على جسده البائس.

الشمس تميل قليلا ناحية الغرب، يهم بالعودة إلى حيث يتمدّد عربي، يستدير فتقع عيناه على القميص الأزرق، أيقن أنه الصعيدي الذي أشار إليه حجّار الفلسطيني، يقترب منه، يلمح جانب وجهه فتتسع عيناه وتنفرج شفتاه عن آهة ممطوطة للمفاجأة التي لم تخطر له على بال، فهذا الشاب الأبيض ممتلئ الجسد ليس فقط صعيدي لكنه من بلده أبنوب إنه، إنه:

- روماني.

بصوتٍ محتبسٍ تمتم طارق بالاسم، يزدرد لعابه في عجالة لابن بلدته وزميل فصله بالمدرسة الإعدادية، اغرورقت عيناه بالدموع، هاجت نفسه المتشوّقة لسند يعرفه، تربّى معه، نشأ في نفس ظروفه، يخفف عنه عزلته وسط كل هذه الأجساد السوداء ويحميه من مطارق اليأس، ينتشل نفسه المنكسرة من بحور الهزيمة ويدفع عنه ضراوة الارتحال.

***

-7-

- روماني إسكندر.

تارة أخرى فاه بها طارق وقلبه يتقافز من شدة الفرح، هذه المرة رفع صوته فالتفت روماني ذو الوجه المستدير وشعره المائل للصفرة، يزر عينيه الزرقاوين ثم يفتحهما وابتسامة عريضة تباعد بين وجنتيه، فتظهر غمازتان جميلتان تزينان وجهه الممتلئ، يعلو صوته:

- طارق، طارق محمود عبدالجابر.

- طارق يا روماني، نسيتني؟

- لا ولكن هنا في المركب، مفاجأة.

- كنت في أي حوش؟

- حوش واحد اسمه حسن سيفاو.

- في زوارة نفسها؟

- في منطقة بعيدة قرب صحراء زوارة.

يبتسم طارق في فرح ويقبض على كتف روماني، يهزه في اغتباط ويجلسان قبالة بعضهما.

- مسافر إلى إيطاليا يا روماني؟

يقطب روماني حاجبيه، يمط شفتيه مصطنعا الاهتمام ويجيب:

- لا، إلى القمر، سمعت أنه يوجد عمل هناك فمسافر إلى القمر للعمل في رستورانتيه البيتزا.

من قلبه يضحك طارق من رد زميله القديم المرح، يتمنى لو أنه رافقه منذ معبر السلوم أو حتى عاش معه أيام الانتظار. في حوش الفضيل يجتران ذكريات دراستهما معا في المدرسة الإعدادية، تميل السفينة فيميل معها روماني ثم يتمدد على جنبه يحاذيه طارق، يحاذر أن تصدم قدمه أحد الجالسين، يسأل روماني في شوق:

- كيف أحوالك والدنيا معك؟

- الحمد لله، بعد الدبلوم الصناعي، سافرت إلى الأردن، عملت هناك لكني تعبت وبعد أن عدت بأيام مات أبي وبدأت المشاكل.

- البقية قي حياتك، لكن أي مشاكل؟

- أبي صاحب محل تصليح غسالات وثلاجات في شارع السوق.

- أعرف طبعا.

- وكنت أشتغل معه وكسبت صنعته، في الأردن كونت مبلغا كبيرا من عملي في محل لتصليح الأدوات الكهربائية، ولكن لما عدت وجدت أخي الكبير رامز يريد تغيير المحل إلى مركز لخدمات المحمول، بيع، شراء، تصليح، استبدال.

- أعرف رامز، كان...

- صاحب عاهة، عنده شلل أطفال وكل صاحب عاهة جبار كما سمعنا في المثل، حكم على أمي أن تبيع أجهزة أبي ويحوّل الدكان من محل كبير للصيانة إلى اكسسوارات للمحمول وخلافه.

- وأنت، ما لك نصيب فيه؟

- عرض عليّ أن أعاونه في إدارة مشروعه الجديد لكني رفضت بشدة وتمسكت بصنعة أبي، أحبها وأفهمها تماما، الله يسامحك يا رامز، أكد لي في أكثر من جدال بيني وبينه أن خدمات المحمول مكسبها أفضل مليون مرة من وجع الدماغ في التصليح، تأكدت أنه لا يمكن أن يفرّط في مشروعه حتى لو خسرني.

- ووالدتك؟

- أمنا لا حول لها ولا قوة معه.

- افتح دكان تصليح في مكان آخر.

- فكرت يا طارق في اقتراحك وفكرت أن أخطب بنت عمي.

تنقلب تقاسيم وجه روماني المنبسطة إلى سحنة موسومة بالالتياع فصمت، لم يشأ طارق أن يضغط على زميله القديم فانتظر أن يُفرج عما أحزنه ويواصل كلامه فرآه يعض شفته وهو يكمل:

- إيجار المحلات غالٍ وتجهيزه صعب.

- وحكاية بنت عمك؟

- عمي وزوجته عندهما علم بنيتي في خطوبة بنتهما لكن بمجرد أن تقدّم لها واحد راجع من إيطاليا، قلبوا ظهورهم لي ووافقوا عليه.

تتسع عينا طارق ويصيح:

- لكنك ابن عمها وابن العم أولى.

- كان زمان يا رجل يا طيب، كيف لا يفضلونه عليّ وهو يعرض أربعين ألفا شبكة، غير تجهيز الشقة بالكامل ولن يلزمهم بأي تكاليف.

- وبنت عمك، موقفها؟

- بنت عمي عارفة رغبتي فيها وموافقة لكن لما قارنت بين حالتي في تصليح الغسالات والشحم والزيت وبين واحد معه آلاف مؤلفة، فضلته وعرفت أنه رتب لسفرها معه.

- ارحمنا يا رب، أربعين ألف شبكة؟ وأنا أتعجب من أن البنات عنّست.

يسكت طارق، يرفع عينيه للسماء الرصاصية، لم يبق من قرص الشمس إلا نصفه فيتأمل غروبها، يعود بذكرياته الهاربة إلى الوراء، قبل عشر سنوات عندما كانا في فصل واحد بمدرسة الإعدادية بنين يلعبان مع زملائهما الكرة في الشونة خلف سور المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسي، في موسم جني القطن، يتسابقان عند عودتهما إلى البيت على الأكياس الكبيرة الممددة، تتواتر تلك الذكريات البعيدة عندما ذهبا للنزهة يوم شم النسيم في الحديقة الكبيرة أول البلد يلونان البيض ويلعبان به ثم أكل روماني وحده عشر بيضات، وبعدها قاء ما في جوفه وسط ضحك كل الزملاء.

- أسافر لإيطاليا، أعمل في المطاعم أو أي شغل آخر، المهم العودة بالآلاف أو البقاء هناك.

بدّدت عبارة روماني سحب ذكريات طارق، التي كان يستظل بها وسط كل هؤلاء الغرباء وعيونهم المقرّحة من سهاد السهر، فالتفت إلى صاحبه الذي واصل كلامه بنبرات شبيهة بالهذيان:

- أشتري أرضًا، أبني عمارة كبيرة، أفتح ورشة لتصليح الثلاجات والغسالات، أو معرضا لقطع الغيار، المهم أبعد عن أخي الطماع المغرور وأثبت لعمي وزوجته البخيلة أنهما خسرا.

بدا الشفق الأحمر شاحبا والشمس تسترخي بين أحضان الأفق في لحظات الأفول الأخيرة فثبت طارق عينيه في عيني روماني الذاهلتين، تراشقا الأفكار والأماني في تغيير أوضاعهما إلى الأفضل، همس طارق بكلماته الحانية:

- هوّن على نفسك يا روماني وكل شيء نصيب.

- الحمد لله، المهم أخبارك وأخبار دنيتك؟

- بعد سنين التعليم الطويلة، عاطل وأعول أمي وأخي وأختي الصغيرة.

- اشتغل مؤقتا بالعقد لحين تثبيتك.

- حتى لو مؤقت، يرمونك في مدرسة بأبعد قرية والراتب لا يكفي الانتقالات، لما قدمت للعمل بالمدارس الخاصة اشترطت إدارتها الحصول على مؤهل تربوي، سئمت كلمة "لا" عند التقدم لأي عمل، لا،لا،لا، لا يوجد على ألسنتهم غير اللاءات، دبرت حالي وقررت الهجرة وأنت عارف الحال، بيتنا الضيق مبني بالطوب الأحمر ومسقوف بالجريد والعروق، أتمنى أن أصل بالسلامة وأشتغل، أعود فأهد البيت وأبنيه بالمسلح وأفتح أي مشروع نعيش منه محترمين.

- تحب تشتغل في مطعم في ميلانو؟

- لا اعتراض على أي عمل، المهم العودة ومعي المال وأكوّن مشروعي الخاص.

- وفرصتك في الحكومة؟

- أبي خدم الحكومة أربعين سنة، الأشهر الأخيرة قاسى قصور وظائف الكلى ولما مات احترنا في كفنه.

- يرحمه ربنا، البركة فيك وفي إخوتك يا طارق، تصل إن شاء الله وتعمل ويصبح حالك أفضل.

ما كاد روماني ينهي كلمته حتى ألقي عليهما رغيفان وعلبة تونة، تخطاهما الشاب الأسود فالتفت طارق حوله مندهشا من عدم شعوره بالليل الذي جنّ دون أن يحس فالتحفت السفينة بأروبة الظلام، ولم يعد يُسمع سوى تراتيل الأمواج وأصوات المهاجرين الخافتة، فتح روماني علبة التونة، يتناول اللقيمات القليلة وطارق يقضم في صمت، وفجأة ومض وجه عربي النائم في الناحية الأخرى من السفينة فندم على تركه هذه المدة الطويلة، نهض في صمت مقررا تخطي الأجساد المتراصة والعودة إلى عربي، مدّ يده مسلما على روماني فبادره:

- سنرافق بعضنا إلى ميلانو، احذر يا طارق، احذر كل واحد في السفينة، لا تثق في أحد، قد يبيعك الواحد منهم في أي لحظة من أجل مصلحته.

- سمعت أن الصليب الأحمر يرحّل المهاجرين إن ضبطهم.

- لو عدت مصر سأحاول مرة ثانية وثالثة، لابد أن أدخل إيطاليا وأعمل.

يهز طارق رأسه مرات ثم يشد على كف روماني، يستدير والرياح تحمل في هبوبها روائح البحر، في حذر يتخطّى الأجساد الممدّدة وكلمات الاعتراض الغريبة ينفث بها كل من يدوس على يده أو قدمه. اهتزت السفينة، حتى كاد أن يقع فتسنّد على الأذرع الممتدة إليه حتى وصل إلى عربي فرآه لا يزال ساكنا مستغرقا في النوم.

***

-8-

عربي نائمٌ على جنبه الأيمن، مغمض العينين في سكون، يولي ظهره لمن يجاوره فابتسم طارق لنومه الهادئ وحسده على قتل الوقت بالانسحاب من قلق الارتحال واصطدام نظراته بوجوه الغرباء، رأى الرغيف الناشف قرب رأسه، همّ أن يقضم لكنه يشعر بعدم رغبته في تناول أي طعام، يركن الرغيف جواره، يجلس وظهره إلى الجدار الخشبي، اعتادت أذناه هدير السفينة البطيء وأمواج البحر تلطم جوانبها، رفع وجهه إلى السماء، نجمات برج السرطان تحييه بومضاتها الخافتة، يبتسم لها، يشير بيده، يعود بذاكرته إلى الوراء، منذ أن كان في الثانوية العامة، دلّه معلم الدراسات على طريقة تحديد أبراج السماء ومواليد كل برج؛ فعرف أنه ينتمي إلى برج السرطان، قرأ عن السرطان الذي يُطلق عليه أيضا اسم السلطعون أو الكابوريا عند أهل الإسكندرية والقبقب بلغة أهل الخليج، له كلابات أو مخالب قوية يخيف بها أعداءه ويجذب بحركتها أنثاه.

تخيّل يوما أن السرطان قوي ويمكن أن يقضي على كل الأبراج من حوله، يتغلب على برج الأسد ويلتهم الحمل، يقتل العقرب، يُغرق الحوت، ملكته هذه الخيالات حتى حلم ذات ليلة بأنه يأكل سرطانا، قرأ تفسيرًا للحلم بأنه سيصيب مالا، ومن يومها وهو يحلم بهذا المال الذي لم يحققه تخرجه في الجامعة، بل ازدادت أعباؤه عندما مات أبوه المريض وترك أسرته معدمة يعانون العوَز والحاجة فضحّى بالرخيص والثمين من أجل السفر، واعدًا أمه وأخاه وأخته بحياة أفضل بمجرد عمله وإرسال النقود لهم.

ما إن عرف كيف يحدد نجوم برجه إلا وتابع "حظك اليوم" الذي يُنشر في جريدة الأهرام، وقرأ عن صفات مولود هذا البرج، طموح، الإحساس يحرّكه ويسيطر على تصرفه وتفكيره، يقدّس الحياة العائلية، يميل إلى حب الذات، عاطفي، رومانسي. تلك الأخيرة هي التي جعلته يتذكر وجه قمر، ابنة جيرانه التي كان يراها طفلة تلعب الحجلة ونط الحبل والاستغماية مع بنات الحارة أمام البيت، يلمحها بطرف عينه تجلس على الزيار الفاصل بين

بيتيهما، ظهرها المنتصب يشي بنضوجها السريع، يعجب لقوامها المنحوت وشعرها المرسل على ظهرها، ترشف الشاي ولم تلبث أن تركن الكوب وهي تتصفح كتابها، تشعر بحركته خلفها، تستدير، يبتسم لها، تلقي عليه تحية المساء، تشكو له صعوبة دروس النحو، برغم أنه كان في عامه الثاني بقسم الجغرافيا إلا أنه عرض أن يشرح ما يصعب عليها فهمه، شكرته ونزلت على وعد بلقاء قرب امتحانات سنتها النهائية في دبلوم التجارة.

ليلتها لم ينم من فرط التفكير فيها منتظرا ساعة جلوسه قبالتها وهو الذي يستحي أن يحادث واحدة من زميلات الكلية اللاتي يرونه لا يرتدي إلا قميصين طوال أيام الأسبوع ففضل أن ينزوي بعيدا عن الجميع يتابع محاضراته في صمت، لساعات يمكث في مكتبة الكلية يكتب الأبحاث المطلوبة منه في هدوء، لا يخالط أحدًا حتى لا يسأله أي زميل عن مهنة أبيه أو حياته المحكوم عليها بالسجن خلف قضبان معيشته الصعبة، ها هو اليوم الذي لم يستطع فيه منع إفلات قلبه من تلك القيود التي فرضها على حياته فانطلق مرفرفا في سماء التجربة.

كل يوم، على سطح البيت، بعد ميل الشمس نحو الغروب، يجلس على مجلس أمام منضدة ويذاكر ممنيا نفسه بقرب ظهورها حتى خفق قلبه في شدة لصعودها وفي يدها الكتاب والكراسة، ابتسمت له فنهض مسلما، على الزيار الواطئ جلسا متقابلين، عرضت عليه أن يوضح لها بعض القواعد وغوامض النحو، طفق يشرح لها في سلاسة ويضرب الأمثلة، ومن حين لآخر تهز رأسها وابتسامة خفيفة تزين وجهها ببشرته الحليبية الصافية، نهضت مستأذنة، غابت وانتظر حتى أقبلت عليه وهي تمسك بكوب الشاي، وضعته أمامه فاعتذر لكنها أصرت أن الكوب له، عاد إلى الشرح ومن حين لآخر يقرأ في عينيها امتنانا ممزوجا بالاستئناس.

أنهى شرحه، كافأ قلبه الذي شعر بحرمانه بمزيد من الوقت للبقاء جوارها وحين طلبت أن يعيد شرح بعض القواعد، استفاض في الحديث فانقضى الوقت وهما متجاوران، يرجو ألا تغيب الشمس التي أبت إلا العودة لمكمنها الأبدي.

مدّت يدها مسلمة عليه وهي تشكره فقبضت أصابعه على كفها الرقيق، تدفقت الدماء محركة خلاياه للمرة الأولى التي تتواضع فيها فتاة وتسمح أن يلامس يدها، انسحابها من أمامه لم يهدئ خفقان قلبه، غابت ولم يزل واقفا لا يريد أن يتحرك حتى لا يهرب ذلك الإحساس من كيانه، يجلس مكانها على الزيار؛ يستطيب ببقايا دفء وجودها وهو يتأمل القمر الوليد بين أحضان السماء.

منذ تلك الليلة لم تصعد، يظل منتظرا والشوق يتلبس روحه المتلهفة، أرجع ذلك إلى انشغالها في امتحانات الدبلوم، ليالٍ يتقلب على جنبيه، يفتح المذكرة يراها تطل عليه، يقف أمام المرآة المثبتة على الجدار فيضحك وجهها له، عندما يخرج من البيت تتلصص عيناه فترسل نظرات خاطفة نحو باب بيتها الموارب، أحيانا يلمحها بطرف خفي تقف في المجاز.

استحت نفسه أن يتبعها وهي في طريقها إلى لجنة الامتحانات أو ينتظر خروجها من المدرسة، اعتبر ذلك خيانة لقلبه الشريف ففضل أن ينتظر على السطح لتأتيه راضية حتى كان آخر يوم من امتحاناتها، جلس على الزيار، يربت على قوالب الطوب ويفرك بين أصابعه الطين الناشف، عيناه على السلم، أمال رأسه إلى الوراء، يود لو يمسك بيدها ويطيران ليعيشا بعيدا، ابتسم لنجوم برج السرطان، تخيله نائما في هدوء فانتهزت نجوم برج القوس وأطلقت سهما غادرا فانغرز في قلبه.

فتح عينيه المغمضتين على الزغاريد تلعلع من جوف بيتها، انتتر واقفا، تخطت قدماه درجات السلم، لاهثا بحث عن أمه، سأل عنها أخاه إيهاب فأخبره أنها اصطحبت رضوى إلى بيت جارهم لأن قراءة فاتحة ابنتهم قمر الليلة وعن قريب سيكتب كتابها.

ألجم الخبر لسانه فانعقد واحتبس الاعتراض في حلقه، استدار داخلا الغرفة، تفجرت عيناه بدموع لم تفض بها من قبل، المرة الأولى التي يفتح قلبه للحب وتسكنه فتاة، يذبح ويقطع ويخطفون حلمه منه.

ها هي تجربته تتوارى في حنايا قلبه المذبوح، يُحكم عليها بالوأد قبل أن يكتمل نضوجها، ليلتها ظل يهذي كإنسان ممسوس بالجن، لعن البيت والحارة البلد التي لا تهيئ فرصة لشبابها كي يتزوج كل منهم من أحبها، لا بد أن يكابد مشقاتٍ ومحنًا حتى يستطيع أن يكوّن أسرة بعد أن يكون قد ذاق انكسارات قلبه وهزيمة روحه فيقنع بالقليل الذي تجود به الأيام، لكنه لن يقنع، هكذا غرس في نفسه المهزومة تصميمه على الوصول إلى تغيير حياته، لن يهمل دراسته حتى لا يُضيّع تضحية أبيه وأمه هدرا بل سيكمل ويتخرّج وبعدها لن يضيع فرصة للعمل في أي مجال وإن لم يسعفه العمل في البلد فالسفر بلا تردد.

تفتر شفتاه للكلمات الأخيرة، السفر بلا تردد، كل خطوة خطاها كانت بلا تردد، الآن في قلب البحر، ينتظر الوصول إلى الشاطئ الآخر، لن يرفض عملا وسيرسل ما يكتسبه من يورو إلى أخيه إيهاب بلا تردد؛ حتى يهد البيت القديم ويبني مكانه بيتا قويا بالحديد المسلح له أدوار عدة وتطل من غرفته شرفة كبيرة.

تفتر شفتاه عن ابتسامة باهتة وهو على يقين بقرب تحقيق آماله كما تقر صفات مواليد برج السرطان، لم يمانع النعاس الذي غالب جفونه فترك أهدابه تتشابك ليقطع الليل الطويل بالنوم منتظرا نهارا آخر يقرّب تلك السفينة من البر.

***

يفتح عينيه، يشعر بحجر يجثم على صدره، جاهدا يعافر لزحزحته، الحجر أثقل من أن يبعده، يلتفت إلى عربي النائم جواره، يهزّه لكنه بلا حراك، يريد أن يصرخ فيُكتم الصوت داخل صدره، يستغيث بصديقه سرطان السماء فتجحظ عيناه للمخلب الكبير بحجم الجبل، يحركه في سرعة لولبية وينتفض منفصلا عن جيرانه الأبراج الأخرى، يقترب منه، يهاجمه، يرفع كلابته فيعجز لسانه عن إطلاق صراخ الاستغاثة، الكلابة القوية تطبق على عنقه، يزداد ضغطها فيشعر أن رقبته ستنفصل وعينا السرطان الطويلتان يتطاير الشرر منهما، يعجز عن الالتفات فتتراخى أطرافه ويخدع السرطان فيمكر مصطنعا الموت فينتره

المخلب القوي ليقع أرضا، يرى السرطان قد عرج إلى السماء وكلابته تقبض على رقبة عربي النائم وطارق يحيط عنقه الجريح بكلتا يديه ويتقلب.

يظل يتقلب، يصطدم جسده بجسد عربي، يفتح عينيه فجأة فتنقشع سحب كابوسه المريع، يطلق آهة محمومة ويهب جالسا، حلقه يكاد ينصهر من شدة العطش، العرق ينز فيغرق ياقة قميصه، في صعوبة يزدرد لعابه، يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، رويدا تهدأ أنفاسه، يميل وجهه إلى عربي الذي لم يغير رقدته، بكفه يربت على كتفه، يشعر بجموده، يمسح جبينه فيدق قلبه لجلده البارد، يميل نحوه، يهمس باسمه، يهزه في رفق، في قوة، ينشرخ قلبه لثبات بؤبؤ العين، تارة أخرى يهز ساعده المتيبس، يرفعه لأعلى، يتركه فيلقى جوار الجسد الممدد، لا يريد أن يصدّق أن عربي:

- مات.

نطق بالكلمة فالتفت يمينا ويسارا وقلبه المشروخ يرتعب من أن يكون قد سمعه أحد، ارتعشت شفتاه أسفًا على رفيقه الدمياطي الطيب، تركه وقتا طويلا أثناء محادثة عشاري، بقي مع روماني وقتا أكثر من اللازم وربما يكون السر الإلهي طلع منذ ساعات طويلة، ربما أراد عربي أن يشرب، يأكل، يتنفس، حنق على نفسه، لامها أشد اللوم لأنه لم يسعفه.

حنق على السفينة والفضيل وسعدون، يود لو يعود إلى دمياط فيلطم زوجة أبيه وابنتها الحرباء، يوبخ أباه الخانع الذي فرّط في ابنه الماهر ليهاجر ويموت غريبا في سفينة وسط عشرات الغرباء ومصيره المحتوم ينتظره، طالت أم قصرت سيلقى في الماء ولا أحد يبكيه.

عربي مات وقد يكون مصيرهم جميعا الموت بمفردهم وقبور الماء تنفتح على مصاريعها لتلتقمهم، تنثال العبرات غزيرة مبللة وجنتي طارق، حرص على ألا يُكتشف موت عربي فيحتفظ بجثمانه لأطول وقت ممكن على السفينة، قوّس ذراعه حول ظهر رفيقه الناشف، رفع رأسه نحو السماء، نجوم برج السرطان تومض في خفوت، عض شفتيه، يود لو يتحقق

كابوسه وينفلت السرطان ليهاجم السفينة ومن فيها ويقلبها بكلاليبه في البحر فيرقد الجميع في قبور الماء.

***

-9-

بيده يمسح شعر عربي الطويل، يمر على سلسلة عظام ظهره الناتئة، ضربات قلبه تتسارع ورجفة تسري بين جوانحه، حين لامست أنامله جيب البنطال، طرف الكيس البلاستيكي يذكره بما أوصاه عربي، في حسرة يسحب الكيس الملفوف بعناية، دون أن يراه يضعه في جيبه، يكز أسنانه للوجه الجامد الذي سيفارقه بين لحظة وأخرى، سكاكين الحزن تطعن كل خلايا جسده وأسئلة حادة تغرز أسنتها في قلبه: أهكذا لا يكون للإنسان أي قيمة، يموت على ظهر سفينة فلا يغسّل أو يُكفن ولا يُصلى عليه، يُلقى في المياه وتنهشه فكوك الأسماك، ربما يفتح أبوه يوما علبة تونة أو سردين ليتعشّى بها وتكون تلك الأسماك قد ملأت جوفها من جسد عربي فيأكل شرائحها وفتاتها المكون من لحم ابنه.

يغمض عينيه، دمعة حارة تنحدر على وجنته المرتعشة، تتواتر ذكريات تلك الأيام التي أمضاها مع عربي في حوش الفضيل، بعد أن تعرّفا على بعضهما، كان ككل من بالحوش حذرا في الإفصاح عن نفسه، قليل الكلام لكنه مرحٌ، يلقي النكتة المرة تلو الأخرى، ماهر في اصطياد التعليق اللاذع من أي موقف، لا يكف عن التندر على حالهم في ذلك الحوش البعيد الذي كان معدا لحياة البهائم وها هو يضم بين جدرانه عشرات المهاجرين من بلاد مختلفة ينتظرون فرص الرحيل.

حين كان يأتيهم الفضيل أو مساعده الدميم عكرة بعلب التونة أو الفول والخبز، يستقبله عربي باسما وهو يقول: البرسيم وصل.

طارق وعربي المصريان الوحيدان في حوش الفضيل، لم يحمه أحد غيره من أولئك الأفارقة الذين يتميز معظمهم بالخشونة في المعاملة، حين كادت أمعاؤه تتقطع؛ فتح باب الحمّام فجأة فانتفض الشاب الأسود وهو يخور بكلماته الغليظة وأمسك رقبة طارق، لكن

عربي برغم جسده النحيل استطاع أن يفلت أصابع يد الأفريقي القوية من حول عنقه ويهدئه مقدما له سيجارة وبقي أمام الحمام العفن حتى خرج.

يقتلان الوقت بلعب الكوتشينة والدومينو، ينامان ولا رغبة لهما في النوم، في ليالي السمر يعزف ألحانا على ظهر صفيحة ويرقص رقصة أهل دمياط الشهيرة وهو يغني: يا دمياط يا عروسة البحر.

لم ير شابا يعتز ببلده مثل عربي وهو يذكر دمياط بأنها بوابة البحر، أصل صناعة الأثاث الذي يزين بيوت أهل مصر كلها، أكثر من مرة يؤكد على طارق وجوب زيارته في أول فرصة بعد عودتهما مرة أخرى إلى مصر فيأكل الجبن الدمياطي الشهير وحلوى المشبك، يذكر أشخاصا مشهورين فأخبره ليلة أن رأفت الهجان أصله من دمياط والممثلة المحبوبة سهير البابلي ورياض السنباطي ملحن أم كلثوم من فارسكور ذلك البلد الذي طحنت أرضه جيش لويس التاسع بعد أن هُزم في المنصورة، وطارق يتعجب من معرفة عربي لكل هؤلاء فيرد افتخاره بذكر شخصيات من مشاهير أسيوط ويقول في اعتزاز: الزعيم جمال عبدالناصر من بني مر، والشيخ ياسين الذي تسمع كل البلاد أناشيده من الحواتكة، وسمير غانم وطاهر أبو زيد من أسيوط، وبني عدي ضحت بأولادها وهي تقاتل السفن الفرنسية وجنود نابليون.

كل ليلة كانا يضفران أحاديثهما العامة ويتحاشى كل منهما الحكي عن سيرتهما الخاصة، يلقي عليه طارق جملا بالإيطالية التي حفظ بعضا من عباراتها من كتاب الإيطالية بدون معلم: كومي ستاي؟ أي كيف حالك فيرد عربي: زين والحمد لله، يتضاحكان على خليط الكلمات التي يرددانها ليل نهار.

ينتظران على أحر من الجمر الليلة التي يركبان فيها السفينة، أفصح طارق ذات مرة عن رغبته في صلاة العشاء جماعة في المسجد فانتهز عربي فرصة انقطاع الكهرباء عن زوارة كلها وتسللا خارج الحوش، مشيا في ثقة يقطعان الأزقة والزنقات إلى الشوارع الكبيرة حتى المسجد البعيد المعروف بمسجد التلالة، في الميضأة أفاضا الوضوء وصليا، انتهز

عربي فرصة حديث الإمام بعد الصلاة فتسلل مرة أخرى نحو الحمامات النظيفة ونعم بالاستحمام تحت صنبور الاستحمام وما إن خرج حتى تجرأ طارق وقلده ولأول مرة يشعر بنظافة جسده الذي يظل لأيام لم ينعم بالاستحمام.

لم يتوها في ظلام الليل فعادا إلى الحوش في سرعة وشوارع المدينة لا تزال غارقة في الظلام، حين عادا صوّب الفضيل الكشاف القوي على وجهيهما وهو يحدجهما بنظرات اللوم.

ضوء الكشاف يسطع في قوة فيفتح طارق عينيه في صعوبة، يبدد وجه ذلك الأفريقي الضخم ذكرياته، ينهض جالسا وقد جُنّ بما سيفعلونه بالجسد الرفيع الساجي، عيناه تطفران الدموع، قشعريرة تسري بين أوصاله، مساعد قائد السفينة يقبض على قدمي عربي، يسحبه والشاب الأسود الذي كان ينام جوارهما عيناه يتطاير منهما المكر، تكشف ابتسامته الساخرة عن أسنان ذئبية.

وجم طارق للمفاجأة، لم يتوقع أن يعرف أحد بموت عربي في سرعة، تمنّى أن يتأخر ذلك حتى شروق الشمس فيودع جسده في النهار، حين همّ الأفريقي الضخم برفعه، هبّ طارق محتضنا وسط عربي الممصوص بكلتا ذراعيه وصوت بكائه سمعه كل من بالسفينة، يائسا يحاول استبقاء رفيقه، لكن الأفريقي أبعده رافعا الجثة، فقبضت أصابع طارق على كاحل صديقه المتيبس، بركلة قوية طرحه الأفريقي، وأسرع في رفع الجسد النحيل وألقاه في الماء.

قلبه يكاد ينتزع من صدره هلعا، فيميل جسده على حافة السفينة، لكن المياه المصبوغة بلون القطران ابتلعت جسد عربي الممصوص، التفت في حدة إلى ذلك الأفريقي الذي يرطن بلغته السريعة ويرفع سبابته، اتسعت عيناه لهجوم طارق عليه فاختل توازنه وتعثرت قدماه بأحد الجالسين في برود، وقع الأفريقي لكنه نهض في سرعة وأصابعه تعتصر مقبض ساطوره شاهرا إياه أمام الأجساد التي تفرقت من حوله، ثبتت قدما طارق وارتخت ذراعاه، لا يدري ماذا يفعل، البحر خلفه والذراع الحديدية أمامه فتلبسته حالة من

الوجوم لمصيره الذي بات محتوما، استعد ليلحق برفيقه لعله يسامحه على تقصيره في رعايته أثناء مرضه، لمح من بين أهدابه الساطور المرفوع لكن القامة الطويلة حجزت بينه وبين الأفريقي وهو يحادثه في كلمات سريعة ويمسك بذراعه، أرخى الأفريقي ذراعه، أعاد الساطور الطويل إلى غمده الجلدي واستدار متخطيا الأجساد الممددة حوله.

لم يصدّق طارق أنه نجا من القتل، انهار باركا على الأرض والعبرات تتفجر في غزارة، قبالته جلس الشاب الطويل يربت على كتفه، في حلكة الليل يتفرّس طارق ذلك الوجه المقترب منه، لفظت شفتاه الكلمة مبللة بالدموع:

- عشاري؟

- نعم عشاري، تريد أن تنتحر يا زول؟

- رمى صديقي في الماء.

- صاحبك مات، أتحنطه معك؟ الميت لا مكان له على السفينة، يلقونه بمجرد موته أو قبل موته إن مرض، هنا لا مكان لرائحة الجثث، لا مكان لصاحب مرض، يخشون العدوى.

يتماسك طارق، بطرف قميصه يمسح دموعه، لكن عينيه أبتا إلا أن تسحا العبرات من آن لآخر وهو يحاور عشاري.

- أخاف أنا الآخر أن تصيبني العدوى!

تحملق عينا عشاري في وجه طارق ويسأل في قلق:

- هل كان صديقك يعاني مرضا؟

- لا، أخاف أن تصيبني عدوى قسوة القلب فأفاجأ بأن ألقي شخصًا مات جواري في البحر.

تكشف ابتسامة عشاري أسنانه البيضاء وهو يربت على كتف طارق:

- لا فائدة من ذلك يا تمساح النيل الشمالي، وخذها نصيحة من التمساح الجنوبي، لو أن صديقك العزيز هذا مكانك لوقف جامدا والأفريقي الأصلع يلقي جسدك في البحر، فأنت لم تقصر معه وتمسكت به لآخر لحظة كما رأيتك.

- لكنه متحجر القلب، بلا إحساس، لو أن الميت أخوه هل...

يقاطعه عشاري في حزم:

- بعد أن يدمع عليه، سيطلب من أحدهم أن يلقيه في الماء، صدقني أنا أعرفهم أكثر منك.

- عربي المسكين.

في هذيان فاه بها طارق وشفتاه ترتعشان وهو يغالب دموعه فيقترب منه عشاري، يقعى قبالته، يضمه إلى صدره، تارة أخرى يربت على كتفه وتخرج كلماته في عطف بالغ:

- كلهم معذورون، أعينهم تخفي أحزانا كالجبال، لو تحدّثت مع أي منهم سيغرقك بمأساته التي يعيشها في بلاده، حتى الذي وشى بموت صاحبك، التمسَ العذر لنفسه فإن صمت ستفوح الرائحة ويهدد المرض كل من بالسفينة.

- لكن يلقيه دون صلاة على روحه؟

- ادع له بالرحمة، بعد أيامٍ سنصل قرب شواطئ لامبيدوزا وستنسى كل شيء إلا تأمين وصولك بالسلامة لميلانو والعمل هناك.

أراحت كلمات عشاري نفس طارق الجزعة، برفق يبعد صدره، يغمض عينيه ثم يفتحهما فجأة لجملة عشاري الأخيرة ويستفسر:

- تقول بعد أيام نصل، ألا نصل غدا؟

- لم نبتعد كثيرا يا زول، من أول الليل والسفينة بها عطل آخر يجاهدون لإصلاحه.

- تتكلم كأن الأمر طبيعي.

- بالنسبة لي طبيعي، اسأل مجرّبًا، أول مرة ركبت قارب صيد سريعًا، يومان ووصلنا الشاطئ لكن في المرة السابقة بقينا في عرض البحر ستة أيام كاملة.

ازدرد طارق لعابه، أمال رأسه إلى الوراء فنهض عشاري وهو يمد يده مصافحًا فسلم عليه طارق ولكن عشاري حذّر قبل أن يخطو:

- احذر العاصفة، الرياح الشديدة قد تقتلعك من على السفينة فابتعد عن حافتها.

لا يدري لِمَ طفر وجه رحيم، ها هو يذوق من نفس الكأس التي شرب منها، يهز رأسه، صوت واحد يدور في حنايا روحه المكلومة.

- دائما حظي أفضل حتى في أوقات الانكسار والحزن؛ فالتشادي رحيم دافع عن صديقه وقد كان حيا مريضا رأى الموت بعينيه، لو أن في السفينة صندوق إسعاف لكتبت له النجاة لكن عربي، مات ولا مفر من دفنه حتى لو كان قبره في الماء.

***

-10-

بنظرات منكسرة ودّع طارق ظهر عشّاري المبتعد، ولا تزال كلماته ترن في أذنه فاستعاد ما قاله عن رفاق هجرته، برغم التحذير من تبادل الكلام قبل أن تبحر السفينة إلا أنهم لم ينفذوا الأمر، كل اثنين أو ثلاثة متقابلين يتبادلون أحاديثَ خافتة فيما بينهم حتى عربي، لم يفتحْ مصاريع قلبه ويحكِ عن حياته وأبيه وزوجة أبيه إلا عندما أبحرت السفينة، كذلك حجار الفلسطيني وعشاري حتى روماني فقد وصفه حجار بأنه كان أثناء إقامتهم في حوش سعدون صامتا لكنه روى لطارق ظروف إقدامه على السفر وحكى له طارق أيضا ما جعله يهاجر تاركا أسرته. تساؤلات تراوده عن كل هؤلاء المحشورين في السفينة، قد يكون بينهم مهاجرون من سوريا أو العراق أو الصومال، لو فتح الحوار مع أي منهم لروى له الظروف القاسية التي دفعته إلى السفر وهجر الأهل والأحباب: هذا طرده أبوه، وهذا اختلف مع عمه، ذلك يبحث عن العمل، وآخر يقاسي البطالة، يهاجرون وكل منهم يراهن على أغلى شيء يملكه، حياته.

كل مهاجر جعل رفيقه بئرا لأسراره إلا إذا هاجمه العدو الذي لا فكاك منه، الموت، عندئذ يتخلى عنه الجميع فيصبح البحر مثواه الأخير وتضيع حكاياه وسط الموج..

يتكوّم طارق على جنبه متوسدا ذراعه اليسرى ووجهه أمام سياج السفينة الخشبي، صداع يطن في رأسه فيغمض عينيه مزدردًا لعابه في صعوبة، يمد يده فيطمئن على الكيس البلاستيكي، الذي ثبّته في حزام البنطال بالخيط ليلة مغادرتهم الحوش، تزحف يده إلى جيب البنطال فيسحب الكيس الثاني، يعض شفته أسفًا ويصمم في قرارة نفسه على إعادة النقود إلى والد عربي في أول عودة له إلى مصر، ولكن ماذا يقول له عن ابنه؟ أيفجعه بموته على ظهر السفينة وإلقائه في البحر، أم يكذب عليه ويدعي أن عربي مات على الشاطئ أم مات في نابولي أو في الطريق إلى ميلانو أم غرق أثناء سباحته في البحر ولم

يستطع أحد إنقاذه، هل يظل محتفظا بالخمسمائة يورو أم ينفقها كما أوصاه عربي في آخر حديث لهما قبل نومه الأخير؟

تزاحمت الأسئلة فازداد شعوره بالصداع، أنامله تتحسس شيئا في كيس عربي، يلتفت لئلا يلمحه أحدهم فيهاجمه وينتزع منه ورقات اليورو أو يلقيه في البحر إن قاوم مستترا بظلام الليل فلا أحد يشعر بما جرى، بحذر يرفع الكيس أمام وجهه، يزر عينيه، جاهدا يحاول إدراك ما بالكيس، بالكاد يميّز ورقة صغيرة خضراء، في هدوء تعبث أصابعه، برفق تسحب أنامله تلك الورقة الخضراء المجوفة، تتسع عيناه، يخفق قلبه لاكتشافه أنها أربعة أقراص ريڤو، برفق متناهٍ أخرج قرصين، وضعهما في فمه، في صعوبة استحث لعابه على ابتلاعهما، أغمض عينيه ولسانه يلهج بالدعاء لعربي، يعيد الكيس إلى جيبه، يشعر في قرارة نفسه بالندم على أنه لم يفتح قلبه لعربي منذ أن مكثا في حوش الفضيل، ربما كان سيقترب من شخصيته ويعرف عنه أسرارا كثيرة غير التي أفصح عنها وهما بالسفينة، من بين أهدابه المتشابكة يهتز وجه عربي الطويل قليل اللحم، تنفرج شفتا طارق بكلماته الهامسة:

- كلمتني عن ظروفك يا عربي، وفي نيتي أن أفصح لك عن حياتي لكن الموت خطفك مني. أبي.. لسنوات عاش محروما من الأولاد حتى وصفوه بأنه مقطوع، ربنا يكافئه على صبره فتشاء قدرته وتحمل أمي وتلدني، ومن يومها وهو لا يقصر في تلبية طلباتي، برغم ظروفه الصعبة فإنه ضحّى بالرخيص والغالي من أجل تعليمي وزادت معاناته بعد أن شرّف أخي إيهاب ومن بعده رضوى التي تيتمت صغيرة وحملتُ مع أمي همَّ تدبير حياتنا حتى اليوم الذي ركبني فيه شيطان الغيرة من شباب سافروا إيطاليا وكونوا ثروة، لما عرضت الفكرة على أمي الطيبة قالت لي: اعمل ما يرضيك، باعت العقد اليتيم الذي لم تعد تضعه على رقبتها منذ أن مات أبي، معه الخلخال والخاتم، دفعتهم للسمسار الذي دّبر لي أمر السفر.. آه، تركت البيت ولا زاد له غير معاش أبي البسيط.

يزدرد طارق لعابه في صعوبة، تدريجيا يشعر بمفارقة الصداع، يفتح عينيه، يميل وجهه نحو السماء فيراها رقعة قاتمة ملبدة بالسحب ونجوم برجه متوارية خلفها، يعود إلى طيف وجه عربي فتفتر شفتاه لعينيه المسبلتين في سكون ويحادثه:

- لما أخبرتك أني مواليد برج السرطان، بروحك المرحة استعذت بالله من السرطان وشره وطلبت مني أن أغير البرج، فضحكت من تعليقك وسألتك عن تاريخ ميلادك أخبرتني أنك من مواليد فبراير، في سرعة أخبرتك أنك من برج الدلو فضحكت وقلت أنا فعلا جردل وكررت جملة الفنان سعيد صالح في مسرحية العيال كبرت: الدلو الدلو الدلو، الرجل الدلو يحب الدلو، ضحكنا معا حتى استلقيت على الأرض من تعليقك الذي لم أتوقعه.

يصمت طارق وعيناه تذرفان العبرات لتذكره ضحكات عربي التي كان يملأ بها حوش الفضيل ويعلق على كل من فيه وما فيه، يمسح طارق دموعه ويواصل:

- نسيت أحكي لك عن قمر التي أحببتها، كنت أراها مع القمر المطل عليّ من السماء، برغم أنهم اختطفوها مني بزواجها فإنني كنت أستأنسُ بها وأراها تسكن البدر، حتى في حوش الفضيل، راقبت القمر ورأيتها ترافقني إلى أن انقضت الأيام وغاب القمر فاختاروا وقت المحاق لتتحرك السفينة؛ حتى لا يراها أحد.

الصداع يُمحى أثره من رأس طارق فيجلس وذراعاه تحيطان ركبتيه، يميل رأسه للوراء وتارة أخرى يطفر وجه عربي أمامه:

- أحببت القراءة يا عربي، من مكتبة المدرسة استعرت كل كتب التاريخ والجغرافيا وقرأتها، ولما التحقت بقسم الجغرافيا بالكلية تنقضي ساعات وساعات في اليوم للقراءة، استعنت بزميلي حسين في استخدام الكمبيوتر ووصلة الإنترنت، حسين زميلي ليس معي في القسم لكنه في كلية التربية الرياضية، فور تخرجه عمل في شركة البترول، تصوّر يا عربي شاب مؤهله التربية الرياضية ويعمل في البترول بأجر شهري أضعاف أضعاف ما كان يناله أبي.

لكن الحمد لله، ربنا يسّر الأمور وسهّل لي السفر ولولا موتك يا عربي لما شعرت بأن مشكلة حدثت في هجرتنا.

تنطبق شفتا طارق، يراوده مشهد الأفريقي وهو يرفع عربي ويلقيه في البحر فتبتلعه مياهه السوداء، كليلتهم التي لا تريد أن تنقضي، فيعض شفته أسفا، لكن صوت عشاري تتردد أصداؤه بأن الميت لا مكان له وسط الأحياء ولا أحد سيحاسب أحدا على موت مهاجر أو إلقائه في البحر، نهشه تساؤل: إن كنت أشعر بالغربة وعدم وجود السند بمجرد مفارقة ديارنا، وفي جيبي بطاقتي الشخصية وجواز السفر، فما الذي أواجهه في سفينة لا هوية لأحد بها إلا اعترافه بأنه يتنفس ولا يزال على قيد الحياة؟

عبأ رئتيه بنفس عميق فخرج زفيره حارا مشتعلا كصدره المكتظ بالهموم، شعر بتنميل ساقه، فوقف ليسمح بمرور الدم بها، ظهره يسنده الحاجز الخشبي، هبوب الهواء ينقل إلى أذنيه كلمات مبتورة من نواحٍ متفرقة بالسفينة، يستدير ووجهه نحو الماء، البحر يتململ وزبده يرشق خشب السفينة الرابضة في سكون، يرفع وجهه اتقاء المياه المضمخة برائحة الأسماك الجاسية بالقرب من سطحه، يزر عينيه لضوء بعيد يومض في وهن ويختفي في إشارات متتابعة، نفسه المتحرقة إلى الوصول تتمنى لو يكون هذا الضوء لسفينة أو قارب صيد كبير يقترب من تلك العجوز المعطوبة فيركبونه جميعا ويكملون رحلتهم نحو الشاطئ الآخر.

يتناهى لمسامعة صياح النوارس البعيدة فيندهش من بطء السفينة وعطلها المتكرر الذي لم يكن يتوقعه، صوت الموج يهدر والمياه تضرب جوانب السفينة في قوة فتتأرجح، ورفاقه القابعون يطلقون صيحات الفرح وهم يحسبون أنها ستواصل تحركها فخشى تمايلها المباغت فيرتمي في الماء فلا يغيثه أحد، تارة أخرى يقعى لائذا بالصمت، متمنيا ألا يطول مرض السفينة فتتعافى وتواصل سفرها بلا عودة، يرفع وجهه إلى السماء يستحث الغيوم على الانقشاع ليحادث خلانه نجوم برج السرطان.

***

السماءُ قبة زرقاء صافية والشمس بسطوعها الهادئ تتوسطها، تنتثر النجوم ويرتعش ضوؤها البعيد حول القمر، السفينة ترفع رأسها وتخفضه وهي تمخر عباب البحر الصاخب، رذاذ الماء الخفيف يدغدغ وجه طارق الجالس أمام عربي يلعبان الكوتشينة، يرفع طارق وجهه إلى السماء فيروقه جمالها ويندهش من اجتماع النجوم والشمس والقمر معا، يخفض رأسه فيتعجب للدائرة التي تضم الفلسطيني حجّار وزميل دراسته روماني وعشاري السوداني يجاوره رحيم التشادي القصير والقائد ومساعده الأفريقي الضخم بصلعته الملساء وغيرهم من مهاجري السفينة، وما جعل الحيرة تتلبّسه جلوس الفضيل بين سعدون والأبله عكرة، أمامهم حمود الإسكندراني، جميعهم قابعون يدور بينهم كأس واحد يشربون منه.

تصطدم نظراته بوجه عربي وملامحه تنضح بالحزن، يلقي ورقة الكوتشينة الأخيرة، تتسع عيناه عن آخرهما وهو يرى السرطان المرسوم على الورقة المستطيلة فيرفع وجهه تجاه عربي فينفث كلماته الآتية من أعماق بعيدة:

- انجُ بنفسك يا طارق؛ السرطان سيغرز مخلبه في السفينة.

يفغر طارق فمه دهشا لكلمات رفيقه التي ألقاها من بين شفتيه النحيلتين رغم انشغال الباقين عنه فهمّ أن يسأله عما يحذّر منه لكن عربي تلاشى من أمام ناظريه فهبّ واقفا زائغ العينين وهو يبحث عن صديقه فلمح رأسه يكاد لا يستبين وسط الموج الذي يضرب بألسنته جوانب السفينة، تراجع لهجوم المياه التي أغرقت وجهه، أخذ يمسحها بملابسه المبتلة وكلمات عربي يتردد صداها في أذنه: انجُ بنفسك، انجُ بنفسك.

الأصوات تصخب من حوله، تفر بقايا حلمه فيفتح عينيه فجأة للمياه الغزيرة تغرق صدره، يزدرد لعابه في عجالة للسفينة التي تعلو وتهبط والموج الفائر يلطمها، عيناه تدوران في

محجريهما فيعجز عن تمييز أحد في الظلام المطبق عليهم، الأصوات تتداخل بين الاستغاثة والدعاء والصراخ أمام حجرة القيادة، الرياح تصفر في عنفوان، كل منهم يقعى متشبثا بشيء أو يقبض على ذراع من يجاوره.

يطبق طارق عينيه مفضلا عدم مواجهة العاصفة، يدعو في سره متمنيا ألا يمتد وقتها، يشعر بطقطقة وأصوات أشياء تُلقى في الماء فيفتح عينيه ليستطلع الأمر، يلمح في الظلام الأذرع ترفع براميلَ وأخشابًا وتلقيها في الماء، عندما اهتزّت السفينة في شدة يسقط أحدهم مخلفا وراءه بقية من صراخات الغوث.

أيقن طارق أن سفينتهم الهرمة بمحركاتها الصدئة لن تصمد أمام موجة كبيرة عاتية إلا إذا هدأت العاصفة، لكن البحر يتعاظم وتحدودب مياهه ملتفة حول السفينة المريضة فيرتفع بوزها فجأة وينخفض فيسبغ البحر على فريسته مياه أمواجه الهادرة وصرخات المستغيثين الفزعة تضيع وسط دمدمة السفينة.

من بين القاعدين في هلع ينتصب طارق واقفا، يمسح وجهه ليزيل غشاوة المياه على عينيه، في حرص يحذر الانزلاق، يرى أحدهم أمام حجرة القيادة يمسك بشيء يشبه البطانية وآخر يسكب سائلا من إناء بلاستيكي أبيض، مرارا وتكرارا يحاولون إشعال النيران لكن البطانية المبتلة أبت أن تشتعل وذهبت محاولاتهم أدراج الرياح، يخرج الأفريقي الضخم من أسفل حجرة القيادة قابضا على عصا طويلة عليها كتلة من نيران وهو يحاول في استماتة الوصول لأعلى منطقة بالسفينة والجميع يفسحون له الطريق؛ ليقف رافعا بكلتا يديه شعلة النار الكبيرة ملوحا بها يمينا ويسارا وهو يجاهد للمحافظة على توازنه، موجة كبيرة تصفع البرج الخشبي المهتز فيختل الأفريقي، تنزلق قدماه، جسده المترنح يقع على رفاقه والنيران تنتثر حوله والشباب يحاولون إطفاءها.

في توتر يزدرد طارق لعابه، يزر عينيه باحثا عن روماني مقررا اللوذ به ومساعدته إن كان مصابا فلم يهتدِ إليه وسط الأجساد المتلاطمة كموج البحر من حولهم، يرفع وجهه نحو السماء فتجحظ عيناه للونها القاتم، ها هو السرطان الضخم، أضخم من كل سرطانات

البحار والمحيطات، يتخيل طارق سرطانه المارد يغادر برجه إلى سطح البحر، يهجر السماء متباهيا بكلابته الكبيرة ويزحف نحوهم بحركته اللولبية، يسبح في الماء موجها هجومه على السفينة فيغرز مخلبه المدبب في مقدمتها ويرفعها فتنقلب بكل من فيها وأصوات الصياح تبتلعها الأمواج المهاجمة.

يختل توازن طارق فيقع متدحرجا على ألواح الخشب الزلقة، يصطدم بالأجساد الصارخة، المياه تغمره، حسب أول الأمر أنها موجة كبيرة باغتت السفينة وستنحسر لكنه وجد جسده يسبح ولا يوجد خشب يلامس قدميه فضرب بذراعيه الماء وهو يحرص على أن يرفع وجهه لأعلى.

تتناثر أغراض السفينة من حوله، ألواح خشبية، براميل، أوانٍ، صناديق، زكائب الخبز وعلب التونة، لوح خشبي يسقط على رأسه فيشج أعلى حاجبه، يشعر بدمائه الساخنة تسح على وجهه، بكفه يمسحها وهو يعوم، أصابعه تتحسس الجرح والموج العالي يلطمه في قوة، يسمع صيحات نائية تطلب النجاة، عيناه الزائغتان لا تريان سوى سواد الماء وصوت واحد يدوي في رأسه: انج بنفسك.

زعقات السابحين من حوله تختلط بصرير الرياح، يلتقط أنفاسه في صعوبة والماء المالح يحرق عينيه، الأجساد من حوله تتصادم والحناجر المبحوحة تطلق الصيحات المرتعبة، يد قوية تقبض على ذراعه، تسحبه في لهفة، اليد الأخرى تضغط على ظهره، أدرك أنه أحد الغرقى يحاول النجاة، لم يقاوم وإلا ظل الغريق يدفعه لأسفل فالتقط نفسا سريعا وغطس دافعا الجسد المتشبث به بعيدا، بكلتا يديه يضرب الماء البارد، يضيق صدره، رئتاه تكاد تنفجران، أصابع قوية تقبض على جنبيه، تدفعه لأعلى، يرفع رأسه فتلتقط أنفه الهواء، يلوي عنقه فتجحظ عيناه لوجه التشادي رحيم المواجه له، تتلاقى نظراتهما الزائغة، يفرد طارق أصابع يده شكرا لرحيم الذي علا صوته المتهدج:

- تعلق بأي شيء.

يمنة ويسرة يتلفت طارق وعيناه الدامعتان تدوران في زيغ فلا يرى غير الأذرع القريبة ترتفع وتنخفض في جنون والصرخات الهلعة تصم أذنيه، يبحث عن رحيم فلا يجده، يستمر في دفع المياه من حوله.

أجهد ذراعيه حتى ابتعد أمتارا عن رفاقه المتخبطين في الماء؛ لئلا يتشبث به أحدهم ويدفعه لأسفل، يلتفت خلفه، تحتبس الصرخة داخله لنصف السفينة الغاطس في الماء والأمواج العاتية تؤرجحها، تعجز نظراته المرتبكة عن تمييز المتشبثين بالبرج الخشبي، يتمنى أن يلقوا بأنفسهم في البحر؛ حتى لا تسحبهم السفينة لأسفل، يميز صلعة الأفريقي الضخم وهو يرتدي سترة النجاة، الوحيد الذي احتفظ بسترة للنجاة داخل غرفة القيادة هو وقائدها السكير، لا يبالي طارق بهما، كل ما يهمه هو البقاء على قيد الحياة وعدم استسلامه للضياع في البحر.

انخلع برج السفينة والمياه تغمر مقدمتها، دقائق وبدأت تغوص، كالفئران تقافز من بقي عليها والبحر بموجه العاتي يستقبل أجسادهم المتساقطة في يأس، ترتفع الأذرع وتنخفض ضاربة المياه في محاولات مستميتة للطفو، تتسع حدقتا طارق لرأس الفلسطيني حجار وذراعاه تضربان الماء في عبث محاولا العوم، استدار طارق سابحا نحوه وحين رفع رأسه مرة أخرى غاب حجار، دارت رأسه في كل اتجاه فلم تقع عيناه على وجهه الأبيض الرفيع، عض شفته أسفا على مصير الشاب الصغير، يستمر طارق في السباحة بعيدا عنهم، مؤكدا لنفسه أنه لن ينجو وهو وسطهم وقد يتعرّض مرة أخرى لهجوم أحد محاولي النجاة فيغرقه أو يغرق معه، ألمّ يطن برأسه فيغمض عينيه ويكز أسنانه، تستمر ذراعاه في العوم وأصوات المنادين البعيدة تتعالى، صدره ينهج من فرط الخوف، توقف ليلتقط أنفاسه، استدار فجحظت عيناه لتلك الرءوس والأذرع التي تتناحر من أجل البقاء والأمواج تحاصرهم بأسوار تنذر بالضياع.

يقرر البقاء قريبا منهم فربما تفطّن خفر السواحل من صقلية أو الصليب الأحمر الإيطالي أو أي هيئة إنقاذ ليبية لهم فينتشلونهم، في حركة دائبة تتحرك ذراعاه ورجلاه، يزدرد لعابه

فيتفل الماء المالح والمغص يعتصر أمعاءه، جاهدا محاولا الاحتفاظ بهدوئه، تقل ضربات أذرع رفاقه البعيدة، يرى أحدهم قد وضع حول وسطه عوامة بيضاء وما زال يسبح، جسدا آخر يتشبث ببرميل كبير، آخرين قويت عزيمتهم على العوم بعد هدوء العاصفة تدريجيا، لكنه عزم على البقاء بعيدا خوفا من أن تفتر همة أحدهم فيغرقه، في محاولة يائسة دقق النظر كي يلمح روماني أو عشاري لكن نظراته أضاعتها عتمة البحر وهواؤه البارد.

شيء رفيع مدبب ينغز ظهره، التفت ففوجئ بقرص خشبي كبير يبعده الموج عنه، تارة أخرى تضرب ذراعاه الماء في قوة للوصول إلى الخشب المبتعد، يده تلامس الأطراف الخشنة، يدق قلبه للحلقة الحديدية التي تشبثت بها أصابعه، يسحبها نحوه فيشعر بقوة التيار الذي يجرفها بعيدا، يعيد محاولة جذبها، يشعر بألم عضلات ذراعيه، يستمر في القبض على الحلقة حتى وضع يده على الألواح المبتلة بالماء وفي سرعة صعد القرص فاهتزّ في قوة، لكنه ارتمى مطروحا على الألواح الخشبية لاصقا وجنته المرتعشة على الخشب، يزدرد لعابه المالح، تهدأ أنفاسه، يقرر البقاء على حالته من الاستلقاء لئلا يلمحه أحدهم فيسبحون نحوه كأسماك القرش وكل منهم يريد الصعود على القرص الذي اعتلاه كطوف للنجاة بدل البقاء سابحا في الماء.

لدقائق يقبع في الظلمة، يحرّك رأسه، يرفعها، لا تبصر عيناه أبعد من نصف متر ثم أمواج الظلام من حوله تختلط برائحة ماء البحر، أدخل يده في الحلقة الحديدية حتى معصمه، قرر أن يمكث محتملا الهواء البارد والمياه التي تكاد تتجمد، متدثرا بألحفة الصبر حتى بزوغ الشمس لعل سفينة إنقاذ تلتقطه من براثن المياه التي كره محاصرتها.

يبقى ملتصقا بالقرص الخشبي وأهدابه تتشابك فتنتابه سِنة من نوم ثم يباعد جفنيه في فزع لاصطدام الموج بالألواح الخشبية، فتهتز ثم تتهادى في طفوها والبحر من حين لآخر يرسل أمواجه فتغطي ظهره وتنحسر مخلفة وراءها روائح البحر وأعشابه الطرية تلامس جلده ثم تنزاح مع الماء، الذي يحرق عينيه بملحه الممزوج بالمرارة كليلته السوداء التي يتمنى أن تبزغ شمسها فتمحو ذكرى الساعات المخيفة التي مرت به.

***

-12-

نسمات الليل الرخية تنساب عبر النافذة المفتوحة، تلامس خد طارق فيغمض عينيه ويفتحهما، يبتسم لنجوم برجه الحبيب إلى قلبه يشير إليها فتومض بقوة، يفغر فاه للسرطان المتقافز بين أنجم السماء المتناثرة فتفر من أمام كلابته المتعاظمة، بوثبة واحدة يغادر السماء، يربض قريبا منه، يرفع مخلبه لأعلى استعدادا لطعنه، يدرك أنه في حلم، كابوس يجثم على صدره، ينتظر بين لحظة وأخرى أن يستفيق من شره، الفراش يتأرجح به وسط الغرفة، بكلتا يديه يتشبث بحافته الخشبية، أشعة الشمس الفتية تبدد عتمة الليل، يبحث عن السرطان فلم يجده، يحدق مشدوها في وجه أخته رضوى وهي مقبلة عليه، لسانه ينعقد فيعجز عن نطق اسمها، تقف أمامه وفي يدها كوب كبير، تتسع ابتسامتها وهي تسكب الماء في سرعة على وجهه، يستيقظ فينقلب مفارقا الفراش إلى الأرض لكنه يجد نفسه يسبح في بركة من ماء تعلو أرض الغرفة الصغيرة.

الماء يغمر أعلى صدره، يكح بشدة، في بصقات متتابعة يقذف ما في حلقه، يلتقط نفسا جهد ليجعله عميقا، ألمٌ يدب في عضلاته، يدرك أنه سقط في الماء ولولا الحلقة الحديدية التي أدخل فيها يده لضاع في البحر، في وهن يرفع جسده لأعلى إلى أن ألقى بظهره على الطوف الخشبي، الشمس تصعد مدارج السماء وأشعتها الفتية تؤلم عينيه فيغمضهما ثم يفتحهما فجأة ويحاول الجلوس، يحرّر يده من الحلقة فيحس بألم معصمه، يتلفت في كل اتجاه فلا يجد سوى الماء من حوله ولا أثر للسفينة، لا جثث طافية، لا سابحين في الماء متعلقون بالحياة، أدرك أن التيار أبعده بقية الليل عن مكان غرق السفينة.

يشعر بصعوبة في ازدراد لعابه وألم يشرخ حنجرته، أعراض الالتهاب تشعل النيران في حلقه، يتمنى لو معه قرص برادورال أو لاري برو فيهدئ استحلابه حمم الالتهاب، تارة أخرى يشعر بألم يده، الحلقة الحديدية تركت آثارها الحمراء الداكنة حول رسْغه لكنه يرمقها بامتنان لإنقاذه من الغرق.

الساعة الآن بين التاسعة والعاشرة صباحا، يعض شفته في حسرة لتواتر صورة جلسته في تلك الساعة بين رضوى وإيهاب حول الطبلية يتناولون إفطارهم من الفول والخبز الطري أمام التلفاز الأبيض والأسود يشاهد معهم ماما عفاف الهلاوي تعرض برنامج سينما الأطفال، وأمه بالإبرة والخيط تنشغل في خياطة أي فتق بملابسهم، على عتبة البيت يجلس أبوه، برغم مرضه المزمن يدخن المعسّل من شيشة صنعها بنفسه من برطمان زجاجي وماسورتين من الغاب إحداهما ركّب عليها الحجر والأخرى يسحب منها الدخان، ومن حين لآخر يشعل النيران في قطعة من عظام الذرة اليابسة ويضعها على المعسل الأسود.

أنياب الخوف تنهش روحه المغمومة على تلك المغامرة التي جاسر وركب أهوالها ممنيا نفسه بإرسال أوراق اليورو فور وصوله إلى ميلانو وها هو يتساقط جلده المهترئ بماء البحر، كقط أجرب يمكث على قرص خشبي بين الماء والسماء لا يدري مصيره.

عيناه تذرفان العبرات حسرة على عقله الذي غيّبته الغيرة، هجر أمه وأخته وأخاه وقبر أبيه الذي ترك له عائلة معلقة في رقبته، أنصال من ندم تنغرز في نفسه المهزومة لضياع ما جمعته أمه من نقود وما أنفق في التجهيز للسفر، وإذا أضيف ضياعه في البحر فتتبدد سحب أحلامه بالثروة ويبقى سواد واقعه الفزع أمام مقلتيه الذاهلتين، بكفه مسح جبينه، ندّت عنه آهة أفصحت عن سخونة جسده وجفاف حلقه المشتعل.

يبلل أصابعه، يلحس أنامله، يتفل في اشمئزاز، يشعر بحرارة الشمس تجفف قميصه الخفيف لكنها تحرق قفاه، تارة أخرى يمسح وجهه ورأسه بالماء فيدب الألم أعلى حاجبه، يتذكر جرح ليلة غرق السفينة، بأنامله يتحسس الفتحة الصغيرة، الجرح ليس عميقا وبقايا دماء تلزّجت به لكن الألم يزداد كلما ضغط على الورم أعلى الجرح.

تستطلع عيناه طوف نجاته المتأرجح على صفحة البحر، جاهد كي يتذكر مكان هذا القرص الخشبي في السفينة، رجّح رأيه أنه قد يكون سقف غرفة القيادة ولا سيما عندما رأى بقية من مسامير مدقوقة بحافته، لمح حبلا معقودا في الناحية الأخرى، في حذر زحف نحوه،

قبض على طرفه المتين وسحب، شعر بثقل ما يشده، ثلاثة أمتار وظهر قضيب حديد بخطافين مدببين.

لف الحبل جيدا وربطه، وقف في المنتصف، فرد ذراعيه ليحفظ توازن قامته المترنحة، الرياح تؤرجح القرص الخشبي وتدفعه بقوة كزلاجة من تلك التي يُمارس عليها رياضة التزحلق، يخشى الوقوع في الماء وابتعاد طوفه الصغير عنه فيقعى على الخشب قابضا على الحلقة الحديدية، تدور نظراته في كل اتجاه فلا يرى سوى الماء، يزر عينيه، يرى علب سردين فارغة، زجاجات ماء بلاستيكية تطفو من حوله، أخشابا تقترب منه، حركة الماء تبعد القرص المستدير عن ألواح خشبية عائمة، تومض الفكرة في رأسه، يفرد الحبل، يحرك الخطاف في الهواء، يلقيه نحو أقرب الألواح إليه، فيسقط الخطاف قريبا منه، يسحبه وتارة أخرى يعيد المحاولة، يطوّح الخطاف في قوة ويرميه فيسقط بعد اللوح، في حذر يجذبه، يظل يسحب الحبل والخطاف قد علق باللوح الكبير، يقترب فتقبض أصابعه على طرفه المدبب، يرفعه أمامه، اللوح عريض من ناحية وتضمر ناحيته الأخرى، يعتدل في جلسته، يمسك طرفه الرفيع، يضرب بناحيته العريضة الماء فتحرّك الطوف قليلا، اتسعت عيناه للمجذاف الذي استطاع أن يقتنصه من البحر، صداع يطن في رأسه فيفرد كفه على جبينه الساخن، يزدرد لعابه الشحيح مصرا على التجذيف فيضرب الماء عدة مرات ثم يتوقف، محادثا نفسه بصوت مرتفع:

- الشمس الآن في وسط السماء لكنها أشرقت من هذه الناحية، إذن فالناحية الأخرى هي الغرب، وهذا هو الشمال وخلف ظهري الجنوب، لكن أي مسافة قطعتها السفينة قبل أن تغرق؟ وكم ميلا بيني وبين أقرب أرض، هل أنا قريب من صقلية أم جرفني الموج ناحية تونس؟ كل ما أعرفه أني الآن وسط الماء، لا أمل لي في الحياة سوى مرور سفينة أو قارب صيد بالقرب مني فينتشلني من بحر الملح الذي سجنت فيه..

يصمت قليلا، يشعر أنه استأنس بمحادثته، منذ الآن قرر أن يرفع صوته؛ لتسمع أذناه صوتا آخر غير أصوات الموج من حوله، تظل يداه تجذفان باللوح الخشبي حتى شعر بألم

عضلاته، قرر أن يريح نفسه قليلا، أخرج المجذاف من الماء وأنامه جواره، يرفع الناحية العريضة أمام عينيه، كدموع متسارعة ينثال الماء من أعلاها، يغمض عينيه ويفتحهما، يرى وجه عشاري الأسمر الجميل:

- آه يا تمساح النيل الجنوبي، ترى هل ساق لك الله لوحا خشبيا علقت به أم أنك صارعت الموج وسبحت ذراعاك القويتان وأنت الآن على شاطئ لامبيدوزا؟ نسيت أن أحكي لك عن نفسي يا عشاري، عن الجغرافيا التي درستها، عن اليابسة، القارات، الأنهار، ماء البحر الذي يأسرني الآن في سجنه المفتوح، مرّ الوقت ولم تسمح الفرصة لأقول لك يا عشاري أنني درست أيام الجامعة أن قناة جونجلي شمال جوبا حتى مدينة ملكال من المشروعات الهامة بين مصر والسودان وستوفر مياه النيل الضائعة في المستنقعات لكن توقف المشروع بسبب حرب الجنوب ومطالبة جون قرنق الانفصال، آه يا عشاري، أخشى هذا الانفصال، أشعر أنه على وشك الحدوث وقد يكون دافعا لمطالبة كل إقليم بالانفصال، هل سيعود عصر ملوك الطوائف الذي عانت منه بلاد الأندلس من جديد؟ ماذا كان مصيرها؟ كما قرأت في التاريخ؛ انتهت الأندلس، ضاعت للأبد فهل تضيع بلادنا كما ضاع غيرها؟

صمت، أعاد التفكير فيما قال، مط شفتيه غير مبالٍ لما فاهت به شفتاه من كلمات عبثية، لكنه رضي في قرارة نفسه لانتصاره على خرس البحر، ابتسم للوح الخشب وحرارة الشمس بدأت تجفف ما به من ماء، زاد استئناسه بصوته العالي، قلب اللوح، حملق في الناحية الأخرى، بظفر سبابته يرسم وجها نضرا لشاب صغير، يبتسم له ملقيا عليه تحية الصباح:

- صباح الخير يا حجّار، كيفك وكيف أهل جنين، وقرية يعبد التي أتيت منها؟ بعيدا عن قضية بلدك التي ندرسها منذ الابتدائي، والانتفاضة بحجارتها التي شاهدتها في التلفاز، عمك الآن مستريح بعد أن طردك من عصارة الزيتون، باله في حالة طيبة وأنت بعيد بينما خناجر إسرائيل تنغزه، آه عليك يا حجار، أمسيت تجاور أحجار البحر وأعشابه، ضعت في البحر وضاع أملك في الحياة.

يبتسم في غضاضة لوجه حجار الذي انمحى من أمام مقلتيه الذاهلتين. أسنان بيضاء تبتسم له فبادلها التحية ووجه رحيم الأسود وشعره الخشن تنحت ملامحه على اللوح الخشبي:

- نصحتني بالإمساك بأي شيء يا رحيم، كتبت لي النجاة والآن أجلس على طوف نصيحتك، شكرا لك يا رحيم لإنقاذك لي من بين مخالب الغارق الذي كاد أن يغطسني في الماء، نسيت أسألك: هل تعلمت السباحة في تشاد؟ تلك الدولة التي درست أنها قارية أي لا تطل على بحر، أنا عن نفسي تعلمت العوم في الترعة الكبيرة بالبلد ولما كبرت سبحت في النيل، أرجو أن يكون حظك أفضل مني وأمسكت ببرميل أو عوامة ونجوت.

يطبق طارق شفتيه برهة ثم يرفع حاجبه مصطنعا الدهشة ويستأنف حديثه مع وجه رحيم التشادي:

- تتكلم الفرنسية، تعلمتها في مدارس بلدك ولكني علّمت نفسي الإيطالية: دي دوفيه سي تو؟ تعني: من أين أنت؟

الأجمل من الفرنسية والإيطالية لغة بلادنا الحميمة وأهلها بوجوههم الطيبة، أتمنى أن تعود لبلدك اوزو وتربي أبقارك؛ فيغرقك لبنها بدل الغرق في هجرة قاتلة، صدقني يا رحيم، روث البقر أرحم من الضياع في الماء، ولو وصلت لإيطاليا أو فرنسا كما تريد، لبن بقرك ولحمه أكرم من الهامبورجر والبيتزا.

يصمت طارق، الصداع يدب بين جانبي رأسه ومعدته تفور بأصواتها المعترضة على خوائها وقرقرتها تطالبه بالطعام، يمدد اللوح الخشبي جواره، يقوّس ذراعه حول بطنه الذي ضمر، تمر نظراته على الماء الرائق فاتسعت عيناه للأسماك الكبيرة تجوس في المياه الشفيفة، ازدرد لعابه وهو يرفع الخطافين أمامه، يهز رأسه في تصميم أن يكافئ معدته على صبرها طوال الساعات الطويلة الماضية ويطعمها من خيرات البحر الذي يعتلي ظهره منذ يومين.

***

-13-

يقف متأرجحا والرياح تدفعه إلى الأمام، يمسك بالخطاف الحديدي وباليد الأخرى يرخي الحبل، يرى إحدى الأسماك تقترب من حافة مركبته المفروشة على الماء، يضيّق عينيه مدققا في جسدها الانسيابي فيميز أنها من أسماك القاروص، في سرعة يلقي عليها الخطاف تاركا الحبل يسافر وراءه، لكن السن الحديدي لم يلامس السمكة، فهزت نفسها وجفلت في غوصها مبتعدة، يدرك عدم جدوى محاولة اقتناص أي سمكة بالحبل والخطاف فجلس ويده على اللوح الخشبي، يرفعه أمام عينيه، تتوهج الفكرة في رأسه، حين كان يرافق شريف ابن جارهم الصياد إلى البر الشرقي للنيل، يرقبان القراميط السابحة حول جثة حمار ملقى في المياه الضحلة، كان شريف يمسك بعصا خشبية كبيرة تنتهي بطرف حديدي مدبب فيستخدمها كرمح يغرزه في جسد القرموط أو رأسه ويرفعه في سرعة ويلقيه بين فصوص الطين.

بالحبل يربط طارق الخطاف في الطرف الرفيع من اللوح الخشبي، يتأكد من متانة العقدة، يُميل اللوح الخشبي ناحية الماء، يقبض على طرفه العريض منتظرا أن تمر أي سمكة ناحية سنارته المعقوفة التي صنعها بنفسه، تمر الدقائق حتى ملّ الانتظار والشمس مالت قليلا ناحية الغرب، همّ أن يرفع اللوح لكن سمكة بيضاء لا يعرف نوعها تقترب في تؤدة، تسبح أسفل الخطاف، يعض شفته متمنيا أن ترتفع قليلا، إلا أنها غاصت فملك اليأس أمعاءه الفارغة من تناول أي طعام، تارة أخرى يعلو صوته:

- لو أني في صحراء لأكلت نباتها حتى لو كان من الصبّار، لكن البحر بمائه المالح لا يوجد فيه سوى الأسماك.

اليأس يتلبّسه، يجثم على صدره، يتضور جوعا، يهم بالجلوس وسط طوفه والغثيان يراوده برغم فراغ معدته، لكنها ظهرت، سمكة كبيرة تقترب من نصف متر، لمحها تحت

وهج الشمس تحوم حول القرص الخشبي، دارت عيناه معها، في حذر يُميل اللوح الخشبي في الماء، صبر حتى عامت مسافة شبرين من الخطاف، يستمهلها فدارت بجسدها أعلى الخطاف مباشرة، ارتعشت ذراعه لكنه عزم أمره وجذب لوح الخشب فانغرز سن الخطاف أسفل رأس السمكة التي فوجئت بذلك العدو المهاجم لنزهتها قرب سطح الماء، يكز أسنانه وهو يرفع اللوح الخشبي والسمكة الكبيرة تعافر، ذيلها يضرب الماء، تراجع بجسده للخلف محاذرا أن يقع والسمكة تتقلب في قوة فانفلت اللوح الخشبي من بين أصابعه المرتبكة خلف السمكة التي لاذت بالماء لتبرد جرحها.

يرى الحبل يغوص في سرعة خلف السمكة الهاربة بجوف البحر فخشي أن ينقطع أو تنفلت عقدته، بأصابعه العشرة يقبض عليه، يظل يسحب وهو يشعر بقوة السمكة ورغبتها في الخلاص من السن المنغرز بجسدها، ثابر حتى لف الحبل حول وسطه، يدور بجسده والحبل يرتفع، ظهر طرف اللوح الخشبي فقوي أمله في اقتناص فريسته، قبضت يداه على طرف اللوح وسحبه مرة واحدة، ظهر رأس السمكة يعلن انتفاضة الخلاص، عزم على انتشالها، في سرعة لف الحبل رابطا ذيلها باللوح الخشبي وبرك بجسده عليها، رويدا همدت انتفاضتها وتوقف ذيلها عن الحركة.

لم يكن يتخيل يوما أنه في هذا الموضع وهذا الوقت وتلك الحالة من الإرهاق والجوع والخوف من الغرق يمكنه أن يصطاد سمكة كبيرة كالراقدة أسفله في سكون، وهو الذي اصطاد يوم شم النسيم الماضي سمكة بلطي في حجم كف اليد من النيل فاعتبر نفسه أمهر صياد بين أصحابه.

يشعر بلزوجة جلدها ورائحتها المميزة فنهض من عليها، تفرّسها جيدا لكنه جهل نوعها، أمعاؤه الخاوية تطلق زغاريد الظفر وتحثه على إسكاتها، لم يضيّع الوقت فحرّر الخطاف المدبب من أسفل رأسها، رفعه لأعلى ضاربا بقوة خياشيمها حتى فصل رأسها وألقاه في الماء، بسن الخطاف نزع زعانفها الجانبية، بياقة القميص مسح العرق الناز على رقبته، بكفه مرّ على حراشفها وتارة أخرى استخدم سن الخطاف في شق بطنها ممزقا الجلد الناعم،

دهش لأمعائها الكبيرة التي أخرجها بيديه ومن حين لآخر يشيح بوجهه بعيدا اتقاء الرائحة العفنة، ألقى ما انتزعه ثم غسل يديه بالماء، تارة أخرى يستخدم الخطاف في كشط الجلد جيدا، ارتفع حاجباه لانكشاف لحمها الداكن، قبض على الذيل وغطس جسد السمكة بالكامل في الماء منظفا لحمها، أخرجها وكرر غمرها بالماء ثم رفعها فجأة عندما تذكر تلك المعلومة التي ترددت بين تلافيف ذاكرته فقد تجذب رائحة السمكة المشطورة العديد من أسماك القرش فيكون هو عشاءها البشري الطازج، وضعها أمامه، بأصابعه شرع ينتزع لحمها الطري، يضع قطعة صغيرة داخل فمه، يلوكها فيستطيب مذاقها، يعلو صوته وهو يمضغ:

- طعمها يشبه التونة.

الشريحة النيئة تشعره بالغثيان لكن معدته استطعمت بشائر الطعام فاتسعت وهي تطالبه بالمزيد، لم يخيّب رجاءها فطفق يلتهم من لحم صيده الغالي، راح يمضغ في تمهل والتذاذ حتى شعر بالامتلاء، تأمل السمكة فوجد أنه لم يأكل سوى شريحة متوسطة من جانبها الأيسر فمدّد جسدها تجاه الشمس، بكفه اغترف القليل من الماء، شرب في غضاضة مقنعا نفسه بضرورة نزول أي ماء في جوفه حتى لو كان مالحا، يشعر بدوار في رأسه فتمدد جوار سمكته مغمضا عينيه والموج يؤرجح الطوف الخشبي في هدوء، من حين لآخر ينتفض لاضطراب مركبه المستوي، لكنه لا يجد خطرا فيعود لإغماض عينيه ودوخة تلف رأسه، يستسلم لاسترخائه ممنيا نفسه بالتخلص من الدوار، يربت على بطنه حتى اصطدمت أصابعه بالحزام العريض، يقارب حاجبيه وينهض لتذكره كيس صديقه عربي الدمياطي، أخرجه، رفعه أمام عينيه، يبتسم لحبتي الريقو الباقيتين فأخرجهما في سرعة، يبتلعهما مرة واحدة، يقرب الورقة الخضراء من أنفه فيشمها في تلذذ.

الشمس تقترب من الغروب، تنتظم أنفاسه وهو ممدّد على الطوف الخشبي المستدير، يشتاق لسماع صوته، يرفع اللوح الخشبي أمام عينيه، يبتسم لوجه عربي الضاحك في سخرية ويحادثه:

- أكلت من سمكة يا عربي، ربما يكون ما في معدتي شيء من لحمك بعد أن قضمت تلك السمكة منك، آه يا عربي، من منا نصيبه أفضل من الآخر، أنت مت في السفينة، ألقوك في الماء وأنا مغصوب على فراقك، أما أنا فأتعذّب على تلك الألواح الخشبية، لا أدري ستكتب لي النجاة أم ألقى مصيرك عاجلا أم آجلا؟ ليتك معي نستلقي معا على الطوف أستأنس بدعابتك ونكاتك الحلوة، لكن نحمده على كل حال، ربما قبر الماء الذي سكنته أحن عليك من الماء الذي أستلقي عليه والسماء تظللني ليل نهار.

يصمت وعيناه تذرفان الدموع، يهز رأسه مرات لكن بقية من صداع حثته على السكون فهمدت حركته حتى شعر بالنور يخفت والشمس في طريقها لمسكنها، تنتظم أنفاسه، هنيهة ويتناهى لمسامعه صوتٌ بعيد، ليس تلاطم الموج من حوله لكنه صوت غريب، صفارة متقطعة نقلتها الرياح فالتقطت أذنه صوتها الباهت. يفتح عينيه عن آخرهما للسفينة البعيدة التي تتماوج صورتها في غبش الغروب فانتتر واقفا والموج يهز الطوف وبكلتا ذراعيه يشير معلقا أمله على راكب من السفينة يحدّق في منظار فيرسل أحدا ليلتقطه من وسط المياه، ظل يحرّك ذراعيه حتى تسحّبت العتمة ولم يظهر من السفينة البعيدة سوى ضوء يومض ويختفي، فانهار جسده وجثا على ركبتيه، تذكر السمكة وخشي أن تنزلق في الماء فربط ذيلها بالحبل، تمدد موليها ظهره ووجهه أمام اللوح الخشبي العريض، متخيلا وجه روماني السمين أمامه فيحادثه معاندا الأمواج الطرشاء:

- أنت الوحيد يا روماني لم أستأنس بكلامك، لن يسألني أحدٌ عن مصير ابنه أو أخيه إلا أنت؛ أخوك يعيش في البلد، ماذا أقول له إن سألني عنك؟ هل أخبر أمك أني قابلتك في السفينة؟ كلمتك وكلمتني؟ شكوت لي طمع أخيك وغدر ابنة عمك؟ أخبرها أنك غرقت فينفطر قلبها من الحزن عليك؟

تنطبق قبة السماء الليلية على الأفق البعيد، تبدأ النجوم في ارتعاشاتها، تدور عيناه فيتأمل الهلال النابت على استحياء يكاد لا يعرفه من بين النجوم التي بزغت الواحدة تلو الأخريات من حوله، يعود لمحادثة روماني:

- آه يا روماني، يأتي اليوم وتغرق في بحر الروم كما كان يُسمى قديما.

هواء بارد يهب من كل ناحية، في قرارة نفسه يحمد الله على حر أغسطس الذي ركب فيه البحر فلو أنه تأخر إلى الشتاء وحدث ما حدث وظل على القرص الخشبي كل هذا الوقت لتجمّد من شدة البرد، راوده التفكير في بقية رفاق السفينة، طفرت وجوههم البيضاء والسمراء في ذاكرته، يتمنّى أن يكون أحدهم حالفه الحظ وتعلق بلوح خشبي أو صندوق وتائه الآن بين تلال الماء من حوله، ربما يلتقيان؛ فيستأنس به وينتصران معا على وحش العزلة، يتعاونان في الوصول لأقرب بر.

شبك أصابعه خلف رأسه، اكتملت القبة السماوية بنجومها المنتثرة، تذكر هذا المشهد الذي رآه في فيلم تايتنك، تلك السفينة العائمة كمدينة تظهر كنقطة مضيئة وسط مياه المحيط السوداء، تظللها نجوم السماء، ابتسم وهو يقارن بينها وبين السفينة العجوز التي هدتها سنون الصيد في البحر وأخيرا هجرة بلا عودة.

يتفرّس وجه السماء فيحدد نجوم برج السرطان، تخيله يشير إليه بمخلبه كأنه يلقي عليه تحية المساء فبادله طارق الإشارات ثم عجزت عيناه عن مقاومة النعاس فأدخل يده في الحلقة الحديدية وتشابكت أهدابه، تسحّب النوم إلى روحه المتعبة فلم يشعر بنفسه التي غرقت في بحره الهادئ.

***

- انزلي يا رضوى، جنبي يوجعني.

فاه بها طارق وهو يبتسم في ألم لأخته الصغيرة التي لم تلبث أن نزلت من على ظهره وجثت أمامه تنظر إليه بعينيها اللامعتين، جلس على حافة الفراش فأتت له بكوب الماء، شربه في هدوء، تمدد على الفراش وما زال الوجع ينغز جنبه، ألم آخر أعلى حاجبه، بأنامله يتحسس شقا صغيرا بجبينه، لا يدري متى وكيف جُرح، جبهته ساخنة وكرة من نار تشعل حلقه، يطلب منها أن تأتيه بعلبة دواء لكنها تتراجع، يراها تقف بين أمه وأخيه إيهاب، ستارة من ظلام تحول بينه وبينهم فينادي:

- أمي، إيهاب، رضوى، أمي.

صاح بكلمته الأخيرة وهو يفتح عينيه، تمنى أن يطول حلمه المشطور لكن خيالاته هربت وبقي واقع جسده الملتصق بالألواح الخشبية المبتلة، كريشة في مهب الريح يتأرجح الطوف الخشبي، السماء زرقتها داكنة والفضاء من حوله شديد السواد، إذا رفع يده لم يكد يراها، كفه يضغط على جنبه الأيمن، يتأوّه من فرط الألم، كأن حربة انغرزت في جسده، في صعوبة يزفر أنفاسه، أيقن أنها كليته فلم يحتسِ من قبل غرق السفينة سوى الماء المالح، آخر مرة نزل جوفه ماءٌ عذب كانت بلعتين من زجاجة السوداني عشاري حين كان يهدئه بعد إلقاء جثة عربي في البحر، بعدها لم يشرب إلا الماء المر، تأكد أن هذا هو سبب ألم كليته، يشعر بالحرارة تسري بكل أوصاله، أصابعه ترتعش وهي تتحسس جرح رأسه الذي لم يندمل والملح ترّسب على جلده..

كتل من كآبة تجثم على صدره الضيق، لوهلة تمنّى لو غرق مع رفاق سفره وشاركهم هجرتهم الأخيرة نحو المجهول، مشاهد غرق رفاقه تهتز أمام مقلتيه الناعستين وهم يجاهدون للظفر بأنفاسٍ قليلة قبل الموت المحقق، فلو أن أحدهم سيق له هذا الطوف

الخشبي لاعتبر نفسه أكثر الناس حظا في الدنيا؛ لبقي عليه حتى ينتشله الصليب الأحمر أو إحدى فرق الإنقاذ أو مات عليه وهو يحلم بأوروبا، فلن يحرم نفسه من مجرد الحلم حتى وهو في لحظاته الأخيرة، الوحيد الذي لم يحلم أو واجه الغرق والمثابرة من أجل النجاة هو عربي، غدر به الموت دون أن يخوض أي تجربة وتركه يُقبر في البحر دون اختيار منه، أورثه كيسا من البلاستيك يحوي ورقات اليورو وحبات من الريقو ابتلع آخرها ليخفف ألمه.

من جوف اليأس ينبت التشبث بالحياة، تارة أخرى يخرج كيس عربي، بأصابع مرتعشة يفتحه وهو يحاذر ألا يفقده، يفرده، تتحسّس أنامله العملات الورقية المطوية، يدخل أصابعه فتصطدم بورقة مربعة أسفلها شيء مغلف فيسحبه على الفور، يفاجأ بكبسولتين من الحبوب المستطيلة ومكان الثالثة فارغ.

يتذكر أن عربي أثناء محادثته الأخيرة، أخرجها وابتلع واحدة وأعاد المتبقي منها في الكيس، لم يسأله طارق عن تلك الحبة البيضاوية، لكنه تذكر أن الطبيب كتب ذلك النوع لأبيه في أيامه الأخيرة كمسكن للألم، في سرعة أخرج الحبتين الحمراوين وابتلعهما في صعوبة، يلف الكيس عدة مرات ويدسه داخل جيب البنطال السميك، لم يكتف بذلك لكنه قرر أن يغطس نفسه في الماء البارد ليخفف من حرارته، خلع القميص، في بطء انساب جسده في الماء وهو يقبض بيديه على حافة القرص الخشبي، لثوانٍ شعر بإبر تشك كل شبر بظهره وبطنه؛ لكنه استعذب برودة المياه وهدوء الموج فغمر رأسه كله في الماء وأخرجه منتشيًا، يظل على حالته وقد شعر بابتراد جسده واستعادته لعافيته، بدأ مفعول مسكن الألم ينتشر فهدأ ما كان يشعر به من صداع وزال ألم جرح رأسه، ابتعدت أنصال السكاكين التي تنغز جنبه الأيمن لكنه شعر قليلا بالجوع، ابتسم لنفسه وهو يرمق سمكته الكبيرة تربض على اللوح الخشبي بجوار الخطاف، أشار إليها فوعدته بالعشاء فور خروجه من الماء.

انتفاخ بمثانته فلم يتردد، ترك نفسه يبول، يخرج تلك السموم التي سببت له وجع جنبه، شعر براحة عظيمة وانمحى أي أثر من ألم كليته فأغمض عينيه وتنفس بانتظام، يشعر أنه

يطير بين السحاب، يتمنى أن يرتفع في السماء، يسكن بين نجوم برج السرطان، فيحميه بكلابته القوية ويخبره بما يخفيه الحظ من أحداث، يتركه ويتجوّل بين كل الأبراج ثم يعود إلى ماء البحر الذي أمسى رفيق خلوته.

تجحظ عينه لملامسة قدمه فجأة لشيء مدبب، في سرعة يحاول الخروج، ذراعاه ترفعان جسده، ينتشل ساقيه، يحدّق في البحر بلونه العسلي، على بُعد أمتار ترتفع زعنفة كبيرة، يدرك أنها سمكة قرش تتسكع لجلب طعام العشاء، يتراجع إلى وسط القرص الخشبي، تتلاحق أنفاسه وهو يوجس في نفسه خيفة أن يهاجم القرش الطوف ويقلبه؛ فلن ينجو من أسنانه الحادة التي رآها في أفلام الفك المفترس، يمكث هادئا وهو يمسك بطرف الخطاف الحديدي، ظلت عيناه تمسحان سواد الماء من حوله. يمينا ويسارا يتلفت في حدة وقلبه يخفق، يحسب كل حركة للقرص إنما دفعة وهجوم من تلك السمكة القوية، لم تلتقط نظراته الزائغة أي ظهور زعانف أخرى، ارتاحت نفسه لظنه أنها سمكة صغيرة لا خطر يُرجى منها، ولكن إن حضرت أمها فتلك هي المشكلة التي يجب أن يحترس لها أيما احتراس.

يترك الخطاف، يجلس متربعا أمام سمكة التونة، بأصابعه يتحسس لحمها الرطب، طفق ينتزع الشرائح الصغيرة، يلوكها داخل فمه فيشعر بتغير طزاجة طعمها، ما زال حلقه يجد صعوبة في ابتلاع الطعام، أحس أنه سيتقيأ ما نزل بجوفه فتوقف عن المضغ منحيا بقية السمكة جانبا.

يرفع وجهه إلى السماء المرصعة بما لا يُحصى من نجوم، تلك النجوم ناحية الغرب تكون حلقة مستديرة تشبه عوّامة النجاة التي رأى قائد السفينة يضعها حول وسطه، لا يدري لما طفر وجه الأفريقي أمامه، يبتسم له فيبادله الابتسام بأسنانه اللؤلؤية البيضاء:

- مبسوط يا قائد السفينة، الوحيد أنت تحزّمت بعوامة في وسطك، أنت وحارسك المجرم، لا يعرف غير رمي الشباب في البحر، لعلك الآن تسبح نحو بر السلامة، لا يهمك من نجا أو غرق، كل ما همك هو الشرب من زجاجة الخمر ومحاولة إصلاح مطيتك الخربة، اعترض يا أخي عليها، قل لسعدون سفينتك معطلة ولا تصلح، ولما السفينة انقلبت كنت أول واحد

قفزت برعونة ناجيا بنفسك، وأمسى كل شاب منا طعاما لقروش البحر، الله لا يكسبكم جميعا، أنت وسعدون والإسكندراني وكل من مكر وغرّر بنا.

في هذيان نطق طارق بكلمته الأخيرة وعيناه سارحتان في ظلمة الفضاء من حوله، يستمر في محادثة نفسه:

- تمنيتُ الوصول إلى ميلانو والعمل فيها، أرسلُ الدولارات واليورو إلى أخي إيهاب فيهد البيت القديم ويبني برجا، أعود لأجد بيتا قويا بالمسلح أعيش في آخر شقة فيه لأراقب السماء ونجوم أبراجها التي أحب أن أكلمها كل ليلة، لكن يبدو أن السرطان هو الذي هجر برجه وهاجمنا جميعا فقتلنا بكلابته.

تارة أخرى يرنو للسمكة، أيقن أن بانقضاء الليل ستفسد ويضطر إلى إلقائها في البحر، يتحسس أفضل وأطيب ما فيها، يظل يأكل وأصابعه تحذر الشوك حتى شعر فعلا بامتلاء معدته، يتمدد على جنبه، أمامه على طرف القرص الخشبي بقية السمكة، يمط شفتيه ويرفع سبابته أمامها:

- أحكي لك يا سمكة عن الفرن، كان في الحوش آخر بيتنا الضيق، لكن جدتي يامنة قررت أن تبني الفرن فوق السطح فطلبت من أبي أن يشتري كيس ملح كبيرا، خلطت نصفه بالطين وملطت مطرح البناء وعندما سألتها أجابت: حتى لا تأكل النار خشب السقف، ولما كان أبي يشتري البلطي، أكبر واحدة في طول ذيلك، تقوم جدتي يوم الخبيز بشواء الأمشاط الصغيرة ونتغذى كلنا في انبساط.

بإصبعه يدعك عينه ويشعر بألمها، يلامس الماء ويمسح في حذر، يواصل كلامه:

- جدتي يامنة ماتت وأنا في الصف الأول الثانوي، خرجت روحها أمام الكانون الذي كانت تحب اللمة أمامه وهي تقمّر الخبز استعدادا للعشاء، سكت لسانها عن رواية الحكايات وهي تضمني في ليالي الشتاء تحت الحِرام الثقيل، في سنة الكلية الأخيرة، تدهورت صحة أبي،

هاجمته الأمراض وكأنها لم تجد سوى جسده النحيل لتستوطنه فشكا من صدره، ضيق التنفس يكاد يخنقه ليل نهار؛ لا يستريح لطعام وفي يوم رأيته يبصق الدماء، حتى كانت الليلة المشئومة، انتابه الإغماء وذهبنا به إلى المستشفى، بعد الكشف عليه وعمل أشعة سألني الدكتور عن وظيفته فأخبرته أنه يعمل على عربة نزح المجاري فهزّ رأسه وأفجعني بأن كبده يعاني من فيرس سي وفي مراحله الأخيرة.

يختنق صوت طارق، يغالب دموعه وهو يكمل:

- لم يكمل أبي شهرين على بلوغه سن المعاش ولحق بجدتي، أبي عاش طوال عمره ينظف آبار صرف بيوت وعمائر البلد كلها، لم ترحمه أمراض المياه الوسخة، مات ولم يشعر به أحد ممن كان ينزح قذارتهم.

انثالت دموعه مبللة وجنته المرتعشة، فعاد الصداع يطن في منتصف جبهته، كجنين تكوّر على نفسه، تراكمت سحب الحزن على روحه المغمومة فصمت وأجفل عقله عن التفكير، أغمض عينيه مسلما نفسه لرسل النوم فاستسلم لهم تاركا قدره بين موج البحر الذي بدأ يرتفع وهبوب الرياح المتلاعبة بطوفه، لا يدري ماذا يُفعل به في الساعات القادمة.

***

-15-

فرّ النعاس من عينيه فجأة وكأن روحه المفارقة لجسده تلبسته من جديد، الماء البارد يغمره، يحرق عينيه الجاحظتين في خوف، أيقن أنه انزلق مرة ثانية أثناء نومه من على الطوف الخشبي، لكنه معلق به فالحلقة الحديدية تكاد تقصم معصمه، بيمينه يضرب الماء، رأسه يرتفع فتلتقط أنفه أنفاس النجاة، يعطس في شدة، يبصق اللعاب المختلط بماء البحر المر، يضع كفه على حافة القرص المهتز، يحاول رفع جسده فتخونه ذراعاه وتارة أخرى ينزلق في الماء، هاجس يغزو روحه اليائسة أن يترك نفسه ليلحق برفاقه، أبيه، جدته لكن وجه أمه الطيب وحضنها المضموم على إيهاب ورضوى دفعه إلى أن يتشبث بتلك الألواح الخشبية التائهة بين دروب البحر؛ ليعود إليهم حتى لو مكث على الطوف أياما أخرى، يرفع جسده، أصابعه تقبض على الحافة الزلقة، في وهن يحاول رفع جسده، بقية من عزيمة تؤكد له قدرته على اعتلاء الألواح الخشبية، جاهد حتى رفع صدره، ألقى بجسده وسط القرص الخشبي وأنفاسه تتلاحق، صوت سعلاته يضيع بين الموج الهادر، والرياح تتلاعب بالطوف في كل اتجاه، عيناه المقرحتان ترسلان النظرات الزائغة، فلا تظفر إلا بأمواجٍ من ظلام تلتف حوله، يزدرد لعابه فيشعر بشروخ تقاسيها حنجرته، ينتفض جسده المحموم، رعشة تنتابه، تسري في كل جسده، أصابع يده اليسرى تقبض على الحلقة الحديدية، تتحسس يمناه اللوح الخشبي، أيقن أن مجذافه الوحيد غادره إلى غير رجعة مصطحبا ما تبقى من السمكة.

الحبل لا يزال معقودا بالحلقة الحديدية الصغيرة في الناحية الأخرى من القرص الخشبي، زحف حتى وصل إليه، سحبه من الماء، لفه حول وسطه، عقده بمهارة في الحلقة الكبيرة التي كان يدخل فيها معصمه، تمدد على ظهره ووجهه إلى السماء، إنه الآن موثوق جيدا بالقرص الخشبي وعيناه شاخصتان نحو النجوم، يستأنس بصوته، تخرج الكلمات متناثرة كرذاذ الماء الذي يسبغه البحر على وجهه من آن لآخر:

- أنا مربوط بك أيها القرص الكبير، مصيري مرهون بمصيرك، إن استقررت بقاع البحر ستكون قبري المفتوح وإن انقلبت بي وأصبح جسدي في الماء فستغرقني بثقلك، أما إن حالفنا الحظ وقذفنا الموج نحو البر، أي بر، لن أعدك أني سأصطحبك لأنك ثقيل وسأكون في حالة من الإرهاق والعطش لا يعلمها إلا الله.

يصمت، يزدرد لعابه في صعوبة بالغة فيعود شعوره بانشقاق زوره من الالتهاب المستوطن حلقه، الصداع يطبق على جانبي رأسه، أنامله تتحسس جبينه المشجوج أعلى عينه، الماء المالح جعل جرحه يندمل بعض الشيء فلم يشعر بألم عندما ضغط عليه والورم الصغير زال أثره.

يدور القرص ومعه تدور السماء، يستطيع أن يجمع نجوم برجه الأثير فيبتسم له في خفوت كصوته الذي يحادثه به:

- تعال يا سرطاني العزيز، هيا، أرسل مخلبك لتقلبني في الماء كما قلبت رفاقي، على الأقل سأغرق وأنا أضحك، أستهزئ من خوفي، وحدتي، مصيري الذي أنتظره لكن زملائي أخذهم البحر عنوة، غرقوا وهم يرجون النجاة.

في وهنٍ يُميل عنقه فيراها قادمة في سرعة، يغمض عينيه للموجة العالية التي رفعت القرص الخشبي وقلبته، ثقل الخشب أشعره كأن السماء انطبقت عليه، أو هوت به الريحُ في مكان سحيق، أيقن أن السرطان نفذ ما كان يتمناه منذ لحظات فانفلت في سرعة البرق من برجه البعيد وضرب القرص بكلابته القوية فقلبه، بقي انقباض روحه الوشيك فأغمض عينيه وكتم أنفاسه لاستقبال ملك الموت، رئتاه كادتا تنفجران من ضيق النفس لكن الهواء اصطدم بوجهه في قوة مستنشقا نفسا قويا والدوار يزيغ عينه، تارة أخرى يستقر الطوف على البحر الهائج.

ينحسر الماء، الهواء البارد يرشق جسده المرتعد، تصطك أسنانه، إبر حادة تنغرز في جنبه، دون تحكم منه يزخ بوله الحارق، بلسانه يبلل شفتيه اللتين ألفتا طعم الملح، يغمض عينيه،

كل الوجوه مُسحت من ذاكرته، بقي وجه أمه الطيب، الذي ينضح بقلة الحيلة، يشير إليها، يحادثها في اعتذار:

- سامحيني يا أمي، انتهزت حُسن نيتك وأقنعتك ببيع العقد، شبكة أبي لك، بعته لأكمل على ثمنه ما دبرته طوال عامين ماضيين، سلبهم اللص اللئيم سمسار السفر؛ استغل حاجتي وحاجة كل شاب وحشرنا في سفينة خربة، نصل، لا نصل، نموت، ننجو لا يهمه مصيرنا، المهم جمع منا المال وجوازات السفر وبقينا هنا مسجونين وسط الماء إلى أن عاقبنا البحر الذي استبحنا ليله، وأرسل الموج ليكسر أخشاب السفينة، وصرنا وليمة لأسماكه.

سامحني يا إيهاب، اغفري لي يا رضوى، كان من الممكن بثمن العقد وما دبرته من عملي البسيط أبدأ في أي مشروع صغير، أي تجارة، ولو بضاعة قليلة أمام البيت، أبيع وأشتري والقليل مع مرور الأيام يصبح كثيرا، إن قدّر لي ربنا وعدتُ لن أترككم، سأبقى معكم، لن ينطبق عليّ المثل: موت وخراب ديار، لن أفارقكم أبدا، أبدا.

في هذيان طفق يردد الكلمة الأخيرة، أهدابه تتقابل وتتباعد، لكنه يقرر أن يغلقهما تاركا القرص الخشبي يتقاذفه الموج فظل يدور ويعلو ثم يهبط ولا يسمع سوى صوت اصطفاق أمواج البحر، لا يدري سببا لتخيلها سابحة نحوه في سرعة، عروس البحر التي شاهد أفلام رسومها المتحركة أكثر من مرة، تمنى أن تأتيه من أعماق المياه السحيقة، لا يطمع في الزواج منها أو أن تحوله إلى حورية مثلها ويغوصان معا؛ لكنه يريد أن تنقذه، تسحب طوفه الخشبي نحو الشاطئ أي شاطئ.

فتح عينيه لصوت صياح، فلم يصدّق أذنيه، ظن أنه هذيان الحمّى التي سيطرت على خلايا جسده أو لأنه يتمنى أن يسمع أي صوت آخر غير زعيق الأمواج، فعادت أهدابه تتشابك لكن الأصوات هذه المرة قوية، بعيدة لكنها واضحة فجحظت عيناه لصياح النوارس الذي كان يسمعه طوال أيام إقامته في حوش الفضيل، يعلم أيضا أن تلك الطيور القوية تحلق بعيدا عن الشاطئ لتصطاد الأسماك ثم تعود، فتساءل في قرارة نفسه عن بر السلامة الذي يقترب منه الطوف.

في وهنٍ أمال عنقه يمينا ويسارا فاصطدمت عيناه بالظلام الدامس، دقائق وانعدم التقاط أذنيه لأي صياح، يتنصت، يكتم أنفاسه في يأس والدوار يئز في رأسه فضربته دوخة شديدة، يشعر بانقلاب معدته، برغبة شديدة في إخراج ما بها فأمال عنقه وقاء جوفه سائلا ذا رائحة كريهة، لم تلبث أن أزالته مياه البحر المباغتة للقرص الخشبي، ارتخى جسده فشعر بالارتياح، تمتمت شفتاه بكلمات الحمد على أنه ما زال يتنفس، يشعر بقدومها فاستعد لانقلاب القرص لكن الموجة هاجمته في رفق، انحسرت مخلفة الرغوات وفقاقيع الماء، شيء يتشبث بصدره، بأصابعه يرفعه لأعلى، يزر عينيه لأعشاب البحر التي تركتها الموجة المتوارية خلف رفيقاتها، تارة أخرى يتعجب من تلك النباتات التي يكثر تواجدها بالقرب من الشاطئ، لم يشغل باله بالتفكير فألقى تلك الأعشاب اللينة بعيدا والدوار يطيح ببقية تماسكه.

ألم كليته يشتد، يدب في جنبه، يكاد يهصر روحه المغمومة فيزدرد لعابه المالح وعيناه تذرفان عبرات الألم، موجة عاتية دفعت الطوف الخشبي دفعة قوية إلى الأمام ثم ردته إلى الخلف، استسلم تماما لتلاعب الأمواج بقرصه الدوّار، يومض وجه الشيخ فتحي إمام المسجد، حديثه المكرر في خطب الجمعة يتردد في ذاكرته المشوشة: إذا أحاطت بك الكروب فادع بدعاء ذي النون عليه السلام عندما كان في بطن الحوت.

يعض طارق شفته وهو ينادي في الظلمات ويردد في خفوت:

- لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

جحظت عيناه فجأة لمكبر الصوت الذي لم تخطئه أذناه فحملت الريح ارتجاعات الصوت البعيد، هاجس راوده أنه يحلم بالأذان، في وهن رفع رقبته، أضواء خافتة تومض وتختفي لكن التعب المصاحب للدوار دبّ في كل أعضائه فارتخت أجفانه وتشابكت أهدابه معلنة عن إغماء غيّبه عن تلك الساعات الجحيمية التي قاسى أهوالها، لم يدر كم من الوقت مرّ وأنفاسه تقبض بأهداب الحياة.

تباعدت أهدابه وما بين الغفو والصحو يلمح يدين قويتين تقبضان على الحافة الخشبية، تدفعانها إلى أن شعر بالقرص يستقر بعيدا عن أرجوحة الماء والأصابع تخلصه من الحبل الملتف حول وسطه، تهم شفتاه بتبعثر الكلمات فيصمت للساعدين القويين اللذين يحملانه، رأسه مدلى فرمق رمال الشاطئ تتماوج مع نظراته المبتورة، في رفق تضعه الذراعان الفتيتان بين قفتين فلا يدري ما الذي تمدد عليه ولا تلك الأكياس الخشنة التي غطته لكن رائحة الأسماك جعلته يتأوه في خفوت وإغماءة أخرى تنتابه مع تحرّك الصندوق الخشبي وآخر ما التقطته عيناه الكليلتان ظهرا عريضا ويدا ترفع عصا رفيعة، تضرب بها مؤخرة بغل أو حصان فيجر العربة مبتعدا عن الشاطئ.

***

-16-

الإبر لا تزال تنغرز في جنبه، ازدراد لعابه يشرخ حنجرته، الحمّى تتلبس جسده الممدد على فراش ناعم، ومغطى ببطانية عليها حِرام صوفي ثقيل، يراوده حلم بأنه ينام على فراشه القديم في البيت، تأتيه رضوى بوجهها المستدير، تقبل عليه أمه بكوب الليمون، أما إيهاب فيغمس خرقة القماش في الماء البارد ويفردها على جبينه، لكن أحداثا أخرى تتعارك مع حلمه بأسرته البعيدة وتنتصر عليها حين تذكر الساعدين القويين يحملانه بعد توقف العربة أمام إحدى البنايات.

يدلف من يحمله باب غرفة مظلمة، صوت آخر رفيع يحادثه فيجيب بكلمات غريبة مقتضبة، من فرط الإجهاد لا يعيها، يدور جسده مع دوران الشاب القوي، يدخل غرفة أخرى صغيرة، برفق يضعه في حوض يكاد يسع جسده النحيل، من بين أهدابه يلمح برميلا كبيرا يرتفع، كشلال ينصب الماء على جسده الهامد، يعجز عن تحريك ذراعيه، يديه، رأسه، ينعقد لسانه عن التفوه بكلمة، يراوده الظن أنه سُلب الحياة وألقته الأمواج على الشاطئ وأهل الخير انتشلوه وهم الآن يغسلونه ويهيئونه للدفن في قبر غريب بأرض غريبة، طفقت اليدان تنتزعان ملابسه، القطعة تلو الأخرى وهو مسلوب الإرادة، يرسخ لديه اليقين أنه يُغسّل فالماء الذي بلل شفتيه عذب وهو مغمور فيه واليدان تدلكان جسده ووجهه، بليفة خشنة يُدعك جلده، يقلبه فيمر بها على ظهره وساقيه، يسكب مزيدا من الماء الفاتر في الحوض فيغمر بقية جسده، عيناه ترنوان في سكون للوجه النحاسي الطويل بشاربه المخطوط والطاقية تخفي شعر رأسه، الشاب الواقف أمام الحوض يمد ذراعيه ويرفعه لأعلى، يضعه على منضدة طويلة وبالمنشفة يجفف الماء العذب، ساوره شك أن الخطوة القادمة هي ارتداء الكفن الأبيض، تحوّل شكه إلى يقين دامغ فالشاب رفع سروالا واسعا وألبسه إياه ثم فرد قميصا أبيضَ كالذي يرتديه وأدخل جسده فيه، بقيت الملاءة الكبيرة وتتم عملية الكفن؛ ليوارى جسده التراب لكن الشاب حمله كطفل صغير بين ذراعيه وخرج

من الحمّام نحو ردهة طويلة ثم دلف باب حجرة صغيرة، أنامه على ذلك الفراش وغطاه ببطانية ثقيلة وجلس أمامه.

- مرحبا!

لم يصدّق أذنيه اللتين طرقتهما كلمة غير أحاديث البحر وصفير الرياح، التي اعتاد سماعهما منذ ساعات طويلة فدارت عيناه في محجريهما تتطلعان إلى وجه الشاب الصخري ذي العينين الضيقتين والشفتين المضمومتين فالتزم الصمت وهو يدير نظراته في أرجاء الغرفة، أعلاها مسقوف بالجريد وفلوق النخل العريضة، والجدار به كوّة صغيرة يشعر بتيار الهواء النقي ينساب منها، يزر عينيه في الوجه النحاسي الطويل فيبادره بالحديث وابتسامة حانية تكشف أسنانه المنضدة:

- عندما تعرق ستتحسّن حالتك.

شفتاه المرتعشتان لم تنبسا بكلمة، دارت عيناه فلمح فتاة صغيرة تدخل الغرفة، بين يديها طاولة خشبية عليها كوب فخاري يتصاعد البخار منه، تركتها في حرص على منضدة خشبية صغيرة وتستدير منصرفة، بسبابته يشير الشاب إلى صدره قائلا:

- أمناي.

يزدرد طارق لعابه ولا يدري بما يرد على تلك الكلمة الغريبة فيغمض عينيه ويفتحهما فيدرك الشاب أن ضيفه لم يعِ ما يقصده فيكرر:

- اسمي أمناي.

برغم لهجة الشاب الغريبة فإنه ينطق بكلمات عربية أدركها طارق على الفور فيهز رأسه علامة الفهم، يحرك شفتيه، تخرج كلمته مبحوحة:

- طارق.

- ليبي؟

- مصري.

يرتفع حاجبا أمناي، يلتفت إلى القدح الفخاري، يرفعه ويقرّبه من فم طارق فنهض مسندا ظهره على الفراش، يرشف في بطء فيستحب طعم الشراب الساخن، يهز أمناي رأسه ويجيب على عيني طارق المستفهمتين:

- منقوع الضمران المغلي أو يسمونه الروبية، سيخفف حمّى جسدك.

يرشف طارق في صمت، والعرق بدأ يتفصد على وجهه فيمسحه بطرف البطانية لكن أمناي يقدم له منديلا خفيفا فيمسح به حبات العرق المتقطرة على وجنته، يركن الكوب وبه بقية من المشروب الدافئ فيسأل طارق في ارتباك:

- أين أنا يا أمين؟

- أمناي يا أخ طارق.

يتنبه طارق إلى حقيقة الاسم الغريب، فيوضح أمناي معنى اسمه دون أن يطلب ضيفه المريض:

- أمناي عندنا معناه الفارس.

يهز طارق رأسه ويهم أن يسأل الشاب الهادئ لكن أمناي يجيبه:

- أنت هنا في بيتنا، في ضاحية بالقرب من زلطن.

- زليطن؟

- لا، زلطن غير زليطن في الشرق، نحن بالقرب من تونس، كنت تريد الهجرة يا طارق؟

هزّ طارق رأسه مرات، مط ّشفتيه، ارتسمت علامات الأسى على ملامحه التي تنضح حزنا فأكمل أمناي كلامه:

- المركب غرقت؟

- نعم، أعتقد أنه لم ينج منها سواي.

- بل نجا العديد منهم وعاموا حتى شواطئ تامورت، لكن حظك كان الأفضل أن جرفك الموج إلى هنا، احمد ربنا أنك لست معهم.

- تامورت؟

يدرك أمناي أن ضيفه الغريب لم يدرك أيضا معنى الكلمة، التي فاه بها فعاد إلى تفسيره السريع:

- تامورت هي نفسها زوارة.

في ارتياح هز طارق رأسه وقد شعر بتحسن صدره ومعدته، ألم كليته لا يزال ينغز جنبه فوضع كفه عليه وعض شفته السفلى.

- ممَ تشتكي؟

- ألم بجنبي الأيسر.

- أكيد كليتك فأنت لم تشرب المياه الحلوة منذ أيام.

هوّم طارق برأسه فقدّم أمناي له كوب الماء، شربه دفعة واحدة وهو لا يصدّق أن ما ينزل جوفه ماءٌ عذب، سكب له أمناي المزيد فطفق طارق يعب من الماء حتى سال بين شدقيه، بكم جلبابه مسح شفتيه، بينما نهض أمناي مغادرا الغرفة فشبك طارق يديه خلف رأسه

وانقبض وجهه وهو يتذكر التصاقه بالقرص الخشبي وسط البحر فأشاح برأسه حتى ينمحي ذلك المشهد البغيض من ذاكرته، دمعة حارة فرت من عينه، سحت في سرعة مبللة شفته فحمد الله في سره وصمت لكن مقولة أمناي نبهته فردد في خفوت:

- البعض نجا وعادوا إلى زوارة، ربما يكون بينهم روماني أو عشاري أو عربي.. لا.. لا عربي مات على السفينة وألقي في الماء، الله يرحمك يا عربي.

- ماذا؟

ارتفعت عينا طارق فاندهش لأمناي الذي دخل الغرفة ولم يشعر به وبين يديه طاولة خشبية عليها قدحان من الفخار:

- اشرب، حشيشة الريح أو الشندقور على ما تسمع.

- لم أسمع بالحشيشة أو الشندقـ.. دقـ..

يبتسم أمناي لتعثر نطق طارق ويقدم له السائل المغلي المحلى بالعسل ويهز رأسه مؤكدا:

- الشندقور المغلي سيخفف آلام كليتك.

يستطيب طعم الترياق الساخن فيحتسيه في صمت، ينهض أمناي متهيئا للخروج فيستوقفه طارق:

- أشكرك أخي فارس على إنقاذك لي من الموت.

- لا شكر على واجب، استرح الآن وسأتحدّث معك فيما بعد، المهم اشرب الشندقور كله والحمّام في الغرفة المجاورة لك.

يغلق أمناي الباب فيعود طارق إلى احتساء مشروبه بمذاقه الغريب حتى أنهى على ما في الكوب، تارة أخرى يشرب الماء حتى شعر بامتلاء معدته، استرخى تماما على الفراش الجريدي البسيط، شعر بحرارة جسده فنحّى الحِرام الثقيل بعيدا، مسح عرق رقبته، أخذ يفكر في ذلك الشاب القوي الذي ساقه القدر إليه فانتشله من الماء في ظلمة الليل بعد أن اعتورته خناجر اليأس في النجاة وأحضره إلى هنا ليبرّد جسده بالماء العذب ويسعفه بتناول هذه الأعشاب الشافية.

عاد يفكر في رفاق هجرته غير الموفقة، يتخيلهم متجمعين الآن في حوش الفضيل يحاكمون سعدون على تلك السفينة الخربة ويطالبونه بتجهيز مركب قوي أو زورق كبير يسرع بهم نحو شواطئ إيطاليا ويعوضهم عن الوقت الضائع أو يعيد لهم نقودهم، تمنى لو كان وسطهم وقبض بكلتا يديه على عنق ذلك الأفّاق سعدون الذي كاد يورده موارد الهلاك هو ورفاقه المهاجرين بتلك السفينة المعطوبة، لكنه عاد يفكر في مقولة أمناي بأن يحمد ربه أنه لم يكن معهم فلماذا؟ سيسأل أمناي عن السبب عندما يستيقظ، فجسده المنهك يئن من وطأة الإعياء لكن مثانته التي انتفخت دون أن يشعر بها جعلته ينهض منتعلا قبقابا خشبيا خفيفا، في حذر يخرج من الغرفة، مصباح صغير أعلى الباب يضيء البقعة بين غرفته والحمام، فتح باب الكنيف، دخل وأغلقه في سرعة، يشعر بارتياح لبوله المندفع في قوة حتى إذا ما نهض زال ألم جنبه بعض الشيء، عاد إلى الغرفة، نام على الفراش، استرخت عضلاته المتعبة وشعر برأسه يتثاقل فتشابكت أهدابه وانتظمت أنفاسه، تسرّب النوم إلى نفسه التي هنأت بالطمأنينة بعد الخوف فغط في نوم عميق وهو لا يفكر فيما سيفعل بعد أن يستيقظ.

***

رويدا تتبدد فلول النوم فيحل محلها أطياف الصحو، يفتح عينيه، العتمة تعجزه عن رؤية أي شيء، ينتظر حتى تعتاد عيناه الظلام، خيوط من ضوء تنفذ من الكوة بأعلى الجدار، يبعد الغطاء عن جسده، ينهض جالسا وبقية من ألم يطن في أجزاء متفرقة من عضلاته، الغرفة مربعة رطبة، النافذة المفتوحة تجدد هواءها، يُضيّق عينيه فيلمح زر الكهرباء على قيد متر من الفراش، ينهض في تثاقل، يضيء الغرفة، تباغته تقلصات أمعائه، يذهب إلى الحمام المجاور وما إن أقعى حتى بزق جوفه مخلفات الأيام السوداء الماضية، لفظ آلامه، بقايا سمكة التونة التي اقتات شرائحها النيئة، برودة الليل، طرد روائح البحر بمياهه، أسماكه، أعشابه؛ استراح بعد تخلصه من ذكريات ساعات الخوف والوحدة والبرد والحمّى.

انتصب واقفا، أمام حوض صغير يدعك يديه أكثر من مرة بالماء والصابون، يغسل وجهه، يمسح شعر رأسه الذي جعله الماء المالح خشنا، المنشفة السميكة تنشف شعره ووجهه، يشعر بالانتشاء، يداعب قطعة الصابون القرمزية، يخرج من الحمام، لم يرفع وجهه وعاد إلى الغرفة في سرعة.

يجلس على حافة الفراش، الهواء الخفيف يريح رئتيه، نظراته تتفحص الغرفة، تحدّق في ثلاث صور متجاورة، الأولى لوجه شاب به الكثير من ملامح أمناي، الثانية لنفس الشاب يتوسط أربعة آخرين ويبدو أنهم في فناء مدرسة، الثالثة للشاب مرتديا الملبس الليبي المميز ويقف بجوار حصان أسود، خطا نحو الصور، يـحدّق في الوجه بقسماته المنحوتة من صخر كوجه أمناي لكنه مختلف عنه بعض الشيء، يخفض عينيه، يتأمل رفوفًا من خشب عليها كتب اعتلاها التراب، يجذب أحدها، يقرأ العنوان: إبراهيم الكوني التبر رواية، يقلب صفحات الرواية ذات القطع الصغير ثم يعيدها مكانها، تلتقط أصابعه كتابا آخر، ينفض عنه التراب الناعم، إنها رواية أيضا لنفس الكاتب بعنوان نزيف الحجر، يعيدها وسط الكتب المرصوصة، تارة أخرى يتأمل الصور، يرفع حاجبيه لبندقية الصيد التي لم يلحظها

سوى الآن، دقائق قليلة مرت وهو على حالته من الوقوف أمام الصور والبندقية والمكتبة الصغيرة .

- إنها صور أخي.

يلتفت فيفاجأ بقامة أمناي المديدة، تدور عيناه بين وجهه والصور فيبتسم أمناي وهو يعقب:

- يشبهني، أليس كذلك؟

يهز طارق رأسه ويبتسم في خفوت فيربت أمناي على كتفه:

- هيا لنتناول الطعام.

يصطحبه إلى صالة واسعة، فتاة دون العشرين تضع آخر الأطباق وأخرى صغيرة تركن قفة صغيرة بها خبز، تقفان في صمت فيجلس طارق مطاطئ الرأس، قبالته يجلس أمناي:

- أختي تالا، وهذه الصغيرة أفرين.

في حياء يرفع طارق وجهه للفتاتين، يبتسم لأفرين الصغيرة، فيرى فيها ملامح شقيقته رضوى، أما تالا فيتفرّس في وجهها المائل للطول كأخيها وعينيها شديدتي السواد، ملامحها تخفي جمالا صحراويا رائقا، يهز طارق رأسه قائلا:

- مرحبا أخواتي.

تستدير تالا منصرفة تتبعها أفرين في رشاقة، يفرد أمناي كفه إلى طارق:

- تناول طعامك يا رجل، ربما لم تأكل منذ ساعات طويلة.

- بل قل منذ أيام لم ينزل جوفي غير تونة نيئة.

- كان معك علب منها؟

- لا، اصطدت واحدة، نهشت من لحمها أكلتين، لما غفت عيني فقدتها.

يصمت طارق فيشرع أمناي في تناول الطعام المكوّن من فراخ محمرة وأرز وملوخية خضراء وطاجن بامية غائص وسطها هُبر اللحم الشهي فيتشجّع ويمد يده بعد أن خجل من أصوات معدته الفرحة برائحة الطعام، يبتسم له أمناي، يتحدّث بلهجته الغريبة:

- تتعجب من أسمائنا، أفرين معناه غزالة صغيرة، وتالا تعني ينبوع الماء، أما الغرفة التي نمت فيها فهي غرفة أخي الأكبر صقر.

يتوقف أمناي عن تناول الطعام، تسرح نظراته المنكسرة إلى الأمام فيتراجع ظهر طارق وأصابعه لا تزال تقبض على صدر الفرخة، ينتبه أمناي لتوقف ضيفه عن الطعام فيهز رأسه مرات وهو يواصل:

- لدينا وقت طويل لنتعارف، تناول طعامك.

في صمت يجهز طارق على طبق الأرز ومعدته تزغرد فرحة بالطعام البيتي، الذي استوحشته طوال أسابيع مضت كانت فيها لا تظفر إلا بلقيمات من خبز وتونة أو حلاوة طحينية وأحيانا مثلثات الجبن، تأتي أفرين بطبقين آخرين من الأرز، تضعهما في صمت وتنصرف، يشعر طارق بامتلاء معدته، يشرب الماء، يمسح يده بقطعة من القماش الأبيض، يعود بظهره إلى الوراء، يهيئ نفسه للتعرُّف على تلك الأسرة التي ألقى القدر به في مسكنها فكان فارسها أمناي هو منقذه من هلاك الموت على رمال الشاطئ فيسأل:

- تعيشون بمفردكم يا أمناي؟

يبتسم أمناي وهو ينهي طعامه وينهض، فيتبعه طارق نحو حوض خارج الحمّام الكبير جوار باب البيت، يغسلان أيديهما، يسيران متجاورين نحو غرفة صقر:

- تمدّد على الفراش فلا يزال جسدك يحتاج إلى الرّاحة.

يتربع طارق على الفراش، قبالته على الحافة يجلس أمناي، يمد إليه كيسين من البلاستيك فتتسع حدقتا طارق لهما فقد نسي كيسه وكيس عربي الدمياطي، رفعهما أمام عينيه في اعتزاز، يبتسم في خفوت ثم يضعهما جانبه على الفراش، هز رأسه في يأس قائلا:

- أنا طارق محمود عبدالجابر من بلد شرق النيل اسمها أبنوب بأسيوط.

- صعيدي.

يهز طارق رأسه ويستأنف:

- أبي كان يعمل موظفا بمجلس المدينة، مات بعد الستين بأشهر قليلة؛ بعد معاناة مع أمراض كثيرة، أمي ربة منزل ولي أخ اسمه إيهاب في الصف الثاني الإعدادي وأختي رضوى مثل أفرين.

- متعلم يا طارق؟

- حاصل على ليسانس آداب قسم جغرافيا من جامعة أسيوط، وبلا عمل منذ تخرجي.

يرتفع حاجبا أمناي ويهز وجهه الطويل ويسأل في نبرة معاتبة:

- وتضحّي بمالك لتجّار البشر المهربين السفلة وتتغرّب في بلاد بعيدة، ترمي نفسك في المهالك من أجل الوصول إلى إيطاليا والعمل بها غير مضمون.

يتراجع طارق بظهره إلى الوراء للحقيقة التي أفردها أمناي دون سابق إنذار فخفض رأسه وخرجت كلماته في خفوت:

- قلت أجرّب حظي مثل العشرات من شباب البلد، وصلوا ميلانو وغيرها من مدن إيطاليا الغنية، عملوا في المطاعم والفنادق، أرسلوا إلى أهلهم الدولار واليورو، هدوا بيوتهم القديمة وبنوا عمائر.

- لكن "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة"، كما يقول الله في كتابه العزيز.

- صدق الله العظيم، الحمد لله على كل حال، قدّر الله وما شاء فعل، عزمت في قرارة نفسي أن...

- تحاول السفر مرة أخرى؟

- لا يا أخي أمناي، بعد أن أكرمني الله بإنقاذك لي سأعود إلى بلدي، حيث أهلي، لن أفارقهم أبدًا.

يربت أمناي على كتف طارق في فرح ويسأل:

- قل لي، سكنت أي حوش؟

- حوش الفضيل ومن دبّر لي الهجرة سعدون.

وكأن طارق نطق بأحد أسماء إبليس، فانقبض وجه أمناي وأشاح برأسه مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم وسأل طارق في اهتمام:

- وجواز سفرك؟

- أخذه منا سعدون ليلة السفر.

- غالبا لا يزال دفترك في حوش الفضيل فإن كان هناك فسأساعدك على استعادته والعودة إلى بلدك، المهم، احكِ لي يا أستاذ طارق، كيف غرق مركبكم؟

- ليس مركبا يا أمناي لكنها سفينة، سفينة كبيرة عليها أكثر من مائة مهاجر.

بدوره تنقبض قسمات وجه طارق الجهمة وهو يستعيد ذكرياته المؤلمة القريبة، طفق يروي لأمناي تفاصيل هجرته منذ وطئت قدماه شاطئ الإسكندرية، ومقابلته حمود وسفره إلى طرابلس، ثم مكوثه بالحوش وركوبه مع رفاق سفره، وتعرُّض السفينة للغرق حتى الإغماء الذي سقط في بئره العميقة قبيل عثور أمناي عليه، والأخير بدوره يقاطعه في تعليقات مستفهمة، ويرقب طريقة طارق في الحكي وارتعاشات وجهه حين رفع أمامه كيس عربي الدمياطي وقسوة الحارس الأفريقي في التعامل مع المهاجرين المرضى أو من يموتون بالسفينة، ظل طارق يروي تفاصيل غرق السفينة وسباحته بعيدا عنها بعد أن كاد هو الآخر يهلك في هجوم مباغت لأحد الغرقى وتعلقه بالقرص الخشبي الكبير فأومأ أمناي برأسه وقاطع طارق مبتسما:

- ما وصفته بالقرص الخشبي، أحضرته من الشاطئ إلى هنا، تحب رؤيته؟

اتسعت عينا طارق دهشة لتصرف أمناي فابتسم له، وروى بقية الأحداث المؤلمة التي اعتورته حتى طفرت عيناه بالعبرات فربّت أمناي على كتفه مشجعا:

- هوّن عليك يا طارق، أنت في أمان بين أهلك وستعود إن شاء الله لبلدك وأسرتك، مشكلتكم هي الاستعجال في تكوين ثروة، بالرغم من أن ثروتنا الحقيقية في بلادنا إن بدأنا بتحسين حالنا بداية من بيوتنا، على العموم قدّر ولطف، حظك بكل تأكيد أفضل من حظ أخي صقر.

يصمت أمناي وتهيأ طارق لسماع خبر هذا الشاب الذي يستريح على فراشه، يحدّق في صور صقر، أيقن أنه متعلم مبرهنا على فكرته بالكتب التي تتكدس برفوف المكتبة، وصورته بين زملاء المدرسة، طال سكوت أمناي فاحترم طارق صمته، زفر نفسًا أودع فيه كل معاني الأسى وبدأ يتكلم.

***

- نحن أولاد ماسين بن عبدالله بن يفاو الغدامسي.

- ياسين؟

- لا، ماسين، أصلنا من غدامس، وهي واحة كبيرة بعيدة على حدود تونس والجزائر يسمونها مناخ الجمال، كانت محطة لاستراحة القوافل التي تمر بها.

- أعرف غدامس، درست مكانها على خريطة جغرافية الوطن العربي.

- أبي وأمي هناك الآن، يزوران العمة المريضة ماتيا.

يتصنّع طارق الدهشة للاسم ففهم أمناي أنه يريد أن يعرف معناه فاستأنف كلامه موضحا:

- ماتيا هي أم الأمهات ومتزوجة من ابن عم أبي أوسمان بن شرف بن يفاو الغدامسي، أبي شديد الاعتزاز بأصلنا الأمازيغي.

تتسع ابتسامة طارق لتعليق أمناي وعقب مضيفا:

- درست أيضا في الجغرافيا البشرية أن الأمازيغ قبائل تسكن صحراء أفريقيا.

- ليسوا مجرد قبائل يا أخ طارق إنهم أمة، شعب كبير له عاداته وأصوله ولغته التي يعتز بها.

- لغته؟!

- نعم، أحرف تيفيناغ القديمة، المغرب وصحراؤها تعتبر الأمازيغية لغة رسمية، أما نحن هنا في بلد القذافي لا اعتراف للأمازيغية، نتكلم بها فيما بيننا.

زفرة أنفاس أمناي وتقاربُ حاجبيه وتغيُّر طريقته في الكلام دفعت طارق أن يقاطعه مخففا من توتره:

- يا أخي، بلدكم جميلة وبها خيرات كثيرة والبلد أولا وأخيرا ملكٌ للشعب ورئيسه.

يمط أمناي شفتيه ويستأنف حديثه بلا اكتراث لمحاولة طارق تهدئة غضبه ويؤكد:

- عائلاتنا وقبائلنا هنا يفخرون بأسماء الأجداد؛ فيسموننا بها إلى جانب ما عُبّد وما حُمّد من خير الأسماء.

- وأخوك صقر، أين هو؟

أرخى أمناي عينيه إلى الأرض، سكت هنيهة، قبل أن تتحرك شفتاه دخلت عليهما أفرين بطبق فاكهة، وضعته أمامهما على المنضدة الخشبية، وقفت أمام طارق باسمة وباغتته بالسؤال:

- من مصر؟

- نعم.

- عندكم النيل الكبير.

- وعندكم العيون العذبة والبحر الواسع.

- تعيش قرب الأهرامات؟

تتسع ابتسامة طارق لسؤال الفتاة البريئة، همّ أن يوضّح لها موطنه في مصر ففاجأته بسؤال آخر:

- رأيت الجميلة منى زكي، أحبها في فيلم أبو علي.

تستحيل ابتسامة طارق إلى قهقهة عالية ذاق حلاوتها لأول مرة منذ مكوثه بحوش الفضيل بزوارة، بكفه مسح على شعرها الناعم فاقتربت منه والابتسامة ترتسم على وجهها الطفولي، ربت على كتفها وخرجت كلماته من بين ضحكته المرحة:

- منى زكي وكريم عبدالعزيز وكل الفنانين المحبوبين يعيشون في القاهرة الواسعة، ربما يقابلهم الناس هناك، أما أنا فأعيش بعيدا عنهم، في بلد بعيد شرق النيل في الصعيد.

همّت أفرين أن تسأله فدخلت تالا تحمل بين يديها طاولة عليها الشاي الساخن، وضعتها جوار طبق الفاكهة، بذراعها أحاطت كتف أختها وقالت مبتسمة:

- أفرين تحب مشاهدة الأفلام والمسلسلات المصرية.

يتذكر طارق معنى تالا، ينبوع الماء، يحدّق في عينيها اللتين تخيلهما كينبوعين صافيين من الماء الرائق فهز رأسه، لم تلبث الفتاتان أن غادرتا المطرح فودعتهما عينا طارق المعجبة، استفاق على صوت أمناي وهو يقرّب إليه طبق الفاكهة، تأمل طارق حبات التين الخضراء والعنب الأحمر فسأل أمناي:

- لماذا تشترون التين دون أن ينضج؟

- لا نشتري التين بل نبيعه، التين من مزرعتنا، وهو ناضج.

يتناول طارق حبة، يقضمها فيفاجأ بطعمها المسكر وجوفها الوردي القاني، تناول حبة أخرى وثالثة فاستطاب طعم التين الأخضر الذي لم يره في أسيوط فأكد على أمناي:

- عندنا التين الأحمر والبرشومي أو الفيومي كما يسميه البعض لكن لا نعرف مثل هذا التين الأخضر الجميل.

دون أن يعلق فضّـل أمناي تناول الشاي فتبعه طارق، أمسك بالكوب الساخن، رشف وهو يشعر بحنين جارف إلى الشاي، في التذاذ استنشق رائحته، توالت رشفات أمناي إلى أن أنهى كوبه، أما طارق فشرب بتمهل مستمتعا بالشاي المغلي ومذاقه الذي افتقده منذ سكنه بالحوش، ركن أمناي الكوب وبدأ كلامه:

- أخي صقر، يكبرني بعام، من كان يرانا ونحن صغار يحسب أننا ولدنا في دقيقة واحدة، تعلّم حتى التحق بجامعة عمر المختار بالبيضاء.

يدهش طارق ويرتفع حاجباه وهو يسأل:

- جامعة، أي كلية؟

- اللغة العربية.

- جميل.

تنقبض تجاعيد وجه أمناي وهو يصوّب نظراته نحو صور أخيه:

- لكنه كان متمردا، جامحا كحصانه الواقف جواره في الصورة، كارها للقيود التي تشده لبلدنا زلطن، كثير الاعتراض على حياتنا فأبي يريده أن يتعلم، لكن يرعى أيضا بستاننا وأغنامنا مثلي، لكنه رغب عن ذلك كله وتطلع إلى السفر والترحال من مكان لمكان، يغيب أياما في جوف الصحراء ليصطاد ضواري الطير، وعندما يحتد الجدال مع أبي يضيق صدره ويسافر إلى غدامس وهناك يغيب أياما وسط التلال والكهوف ثم يعود بجلود ورءوس ما اقتنصه من حيوانات.

يصمت، يهز رأسه في أسف فلزم طارق الصمت، منتظرا أن يهدأ انفعال أمناي ويواصل حكاية أخيه صقر:

- حتى جاء يوما في إجازة الصيف وأعلن عن رغبته في ركوب البحر والهجرة إلى إيطاليا فرفض أبي بكل حزم ولأنه يعرف طبيعة صقر عرض عليه خطبة بنت عمه، فاعترض متعللا بانشغاله في التعليم والعمل بعد انتهاء الجامعة، لكنه تسلل ذات ليلة إلى زوارة، ركب أحد زوارق الصيد من هناك.

- وأخبركم بعد أيام أنه وصل ميلانو؟

- لا، لم يخبرنا ولم يتصل بنا، كل ما عرفناه أن الزورق غطس بمن فيه، أخبرنا أحد العائدين من زوارة أن المركب غرق.

آهة ممطوطة انفلتت من بين شفتي طارق للخبر المفجع، فاستظل جوار أمناي بسحابة الصمت، تخيل صقر واحدا من رفاق هجرته على السفينة وحاول النجاة، لكنه غرق مع من غرقوا ولم يُعثر له على أثر، في كلمات مبعثرة سأل طارق:

- منذ متى؟

- سبع سنين، أبلغ أبي الشرطة عن سعدون ومحمدي وأمثالهم من سماسرة تهجير الشباب، لكنهم نفوا كالعادة معرفتهم بالمركب أصلا، وخرجوا منها كالشعرة من العجين على رأي المثل.

- يرحمهم الله جميعا.

- آه يا أخي طارق، لو أن صقر تعلق بلوح خشبي مثلك لنجا لكن القارب على ما أخبرونا غرق بهم في عرض البحر.

- والناجي الذي أخبر بالغرق؟

- انتشلته إحدى طائرات الصليب الأحمر ورحّلته إلى هنا.

- وبقية الشباب ربنا يتولاهم برحمته.

- كادت أمي تموت حزنا عليه.

- ربنا يصبّرها ويبرّد نار قلبها والله يا أمناي ما حكيته عن صقر لا يختلف عما مر بي إلا أنني أقنعت أمي وأخي بضرورة هذا السفر.

- لذلك، ربنا نجاك لأن أمك رضيت عنك ودعت لك وأنت مسافر، لكن صقر لم ترض أمي عن سفره لذلك...

- لا تقل هذا يا أمناي، نصيبه وعمره ولا راد لقضاء الله.

ينادي أمناي على أفرين فتقبل في خطوات سريعة، يطلب منها أن تحمل الطاولة وتعد كوبين آخرين من الشاي، لم يبد طارق أي اعتراض فهو مشتاق فعلا لكوب آخر من الشاي، بعد خروج الفتاة الرشيقة سأل:

- وأنت يا أمناي تخرجت في أي جامعة؟

- حصلت على بكالوريوس الزراعة قسم المراعي والغابات من جامعة طرابلس، لكني لم أعمل في وظيفة وأرعى أرضنا.

- وأبوك، الحاج ماسين؟

- يعمل بشعبية النقاط الخمس التابعة لها زلطن بجانب عمله في الرعي والبستان.

- شعبية؟

- مثل مجلس المدينة عندكم.

يهز طارق رأسه إشارة الفهم، تقبل أفرين بكوبين من الشاي، تضعهما على المنضدة، ولأن للغريب طبيعة وكلاما يختلف عن أهل البلدة فقد أثارت لهجة طارق البسيطة فضول الصغيرة أفرين فتحّينت فرصة للحوار معه فسألته بطريقتها العذبة التي بدأ يفهمها:

- لك أخوات؟

- أخ أصغر مني وأخت جميلة مثلك اسمها رضوى.

- تعرف تحكي حكايات مثل الجدة تافوكت أم أمغار؟

يرفع أمناي سبابته موضحا ما تقول شقيقته الغزالة الصغيرة:

- الجدة تافوكت، عجوز تسكن في البيت المجاور لأرضنا، تجمع الأطفال وتروي لهم حكايات خرافية.

- الجدة تافوكت، تعرف حكايات جميلة.

يهز طارق رأسه مبتسما وهو يقول مصطنعا الشجاعة:

- سأحكي لك يا أفرين حكاية لم تحكها لك الجدة...

- قمر، تافوكت معناها قمر يا أستاذ طارق، وأمغار هو الزعيم، هيا يا أفرين ليسترح طارق.

تخرج الفتاة ويهم أمناي بالنهوض لكن طارق يستوقفه:

- سأغادر في الصباح يا أمناي.

في شيء من الغضب يقترن حاجبا أمناي وهو يربت على كتف طارق:

- غدا أكواس وبعد غدٍ أسيمواس، فلترحل إن شئت بعد الصلاة.

تتسع عينا طارق ويتدلى فكه في بلاهة فيشيح أمناي بوجه يمينا ويسارا، ويوضح وهو يبتسم:

- غدا الخميس وبعد غدٍ الجمعة إن شاء الله، فلتكمل راحتك التامة ويمكن أن تسافر بعد صلاة الجمعة.

- ستطول إقامتي هنا و...

- نحن عائلة كريمة، نبر ضيفنا حتى يطلب هو الرحيل، لكن حالتك الآن لا تسمح بالتحرك؛ حتى يتم شفاؤك وتتحمل السفر الطويل إلى مصر.

- أثقل عليكم وربما يعود أبوك ويتضايق من وجودي بينكم.

- لا تقل هذا يا أخي طارق، لو عاد أبي سيبقيك أسبوعا لا يومين فقط، تعال نشاهد التلفاز معا ثم نكمل غدا كلامنا يا صعيدي.

- أمرك يا فارس الأمازيغ الكريم.

يتبادلان التبسم وطارق ينهض منتعلا القبقاب، سار خلف أمناي نحو حجرة واسعة، يجلسان على الأرض المفروشة بفرو الغنم، فتح أمناي التلفاز، قلب في القنوات، استوقفه طارق على قناة تعرض فيلما وثائقيا عن الهجرة غير الشرعية فاستمعا له صامتين وكل منهما تجيش في نفسه تجارب وذكريات أليمة.

***

-19-

ما إن خرج طارق من الحمام عائدا إلى غرفته حتى وقف يتأمل صور صقر المعلقة على الجدار، إلى حدٍ كبير يتشابه مع أخيه الأصغر أمناي لكن عينيه الحادتين تفتقدان إلى الصفاء كعيني أمناي والبنتين، وخاصة تالا التي تمتم طارق فور تعلق وجهها بذاكرته: اسم على مسمى، ينبوع ماء وهي فعلا أنقى من الماء.

مد أصابعه ليقلب في الكتب، بعضها مذكرات دراسية عن الشعر الجاهلي، مدخل للأدب والنقد، بلاغة، دواوين لشعراء قدامى، روايات لكتاب عرب وأخرى مترجمة، قصص، التقطت أصابعه كتابا، جرت عيناه على العنوان، أدرك أن هذا الكاتب كان المفضل لدى صقر، قرأ بصوت عالٍ:

- ديوان النثر البري إبراهيم الكوني أساطير الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

أعجب بلوحة الغلاف التي تشبه إلى حد كبير الرسوم البدائية المنحوتة على جدران الكهوف، تلك اللوحات شاهدها في المراجع الموجودة بمكتبة الكلية الكبيرة، شرع يقرأ أول فصل في تلك الأساطير -النصوص الحجرية- استغرقته القراءة فلم يشعر بوقوف تالا وأفرين أمام باب الغرفة إلى أن رفع وجهه لأفرين المبتسمة وتلقي عليه تحية الصباح، خلفها تالا تحمل طاولة طعام الإفطار:

- نمت جيدا؟

- الحمد لله يا أفرين.

- الإفطار.

- أشكرك يا تالا، أين أمناي؟

- ذهب إلى تعريشة العنب ومزرعة التين وسيأتي حالا، لكنه أمرنا أن نحضر لك الإفطار لحين عودته.

تقترب أفرين منه ضاحكة:

- قلت لي تستطيع أن تحكي لي حكاية مثل الجدة تافوكت.

- أم أمغار؟

تبتسم الفتاتان لبديهة طارق الذي واصل تعليقه:

- سأحكي لك حكاية.

- نسيت الماء يا أفرين، أحضريه بسرعة.

في رشاقة تخرج الفتاة فيزدرد طارق لعابه وهو يقول في حياء:

- وجه المرحوم صقر يشبهك أيضا.

- آه، المرحوم صقر، أغضب أمي وأبي قبل هجرته بلا عودة، أيام كثيرة تقف أمي قبالة البحر تنادي عليه وهي تبكي وتقول: سامحتك، تعال، اظهر يا صقر، سامحتك

ويجرها أبي إلى البيت فتظل تولول إلى أن تنام والدموع على وجنتها.

- كان له طموح، لكن حظه...

تقاطعه تالا في شيء من الغضب لا يليق بوجهها الصافي:

- الجدة تافوكت تردد دائما: السعيد من اتعظ بغيره والشقي من اعتبر بنفسه.

- ربما يعود يوما.

- انقضت سنوات ولم يظهر، لا يمر أسبوع إلا ونسمع عن المراكب والسفن التي تغرق قبالة السواحل هنا أو في إيطاليا، صقر نفسه روى لنا أنه رأى جثثا على رمال أحد الشواطئ المهجورة، كان من الأصح أن يتعظ بما رأى لا أن يزعق في وجه أبي وأمي ويسافر بغير رضاهما، أراد ركوب البحر فابتلعه البحر.

تصمت تالا في انكسار فلم ينطق طارق حتى دخلت عليهما أفرين بزجاجة الماء، تركنها وتقف جوار أختها.

- هيا يا أفرين، ليتناول الأستاذ إفطاره.

- ستحكي لي حكاية.

يهز طارق رأسه مبتسما ونظراته تراقب الفتاتين المبتعدتين، تأمل الطعام المكون من بيض مسلوق وجبن وقشطة، كوب لبن وآخر شاي، أمسك بالخبز لكن أصابعه توقفت لكلام تالا عن أخيها فأدرك التصرف الذي حدا بأمناي كي ينتشله من مياه البحر ويستضيفه كقريب، ويتركه مع أختيه كشقيق لهما، يهز رأسه، يرفع صوته قليلا:

- كم أنت إنسان عظيم يا أمناي، اسم على مسمى يا أبا الفوارس.

تدبّر هذه الأسماء التي يشي كل منها بصفات صاحبه فأمناي شاب شهم، له نبل وأخلاق الفرسان، صورة صقر تدل على تمرده وحبه للجموح كالحصان المجاور له في الصورة، أفرين رشيقة، وديعة مثل غزالة صغيرة، تالا صافية فعلا كينبوع الماء، اشتاق لرؤية صورة والدهما ماسين.

أفرين تدخل في بطء وبين يديها كوب فخاري به مشروب الشندقور أو عشبة الجعدة المغلية، تضع الكوب على المنضدة، تجلس قبالته، يدرك ما تريده تلك الغزالة الصغيرة فأنهى إفطاره وجلس متربعا أمامها تهيأ ليروي لها حكاية:

- أحكي لك حكاية الذئب والعنزات الصغيرات.

- حكتها لنا الجدة تافوكت.

- حكاية الراعي الكذاب.

- لما كل مرة يصرخ: ذئب، ذئب والناس تأتي لإنقاذه ولا يوجد ذئب فينصرفون عنه ويكرر ذلك، وفي يوم هاجم الذئب أغنامه فاستغاث بالناس ولأنهم عرفوا كذبه لم يغثه أحد وأكل الذئب غنمه.

أعجب طارق بذكاء أفرين الشديد وقدرتها على تلخيص الحكاية، التي سمعها من جدته وهو صغير في ساعات طويلة، والذي تبدأ به تنتهي به وما تقوله تعيده فقال لها مبتسما:

- حكاية الأرنب الذكي والأسد الظالم.

انتصبت رقبة أفرين للعنوان الذي طرحه طارق وفهم من دهشة عينيها الرائقتين أنها لم تسمع مثل هذه القصة فتهيأ ليرويها قائلا في صوت منخفض:

- كان يا ما كان...

- ولا يحلو الكلام إلا بذكر النبي المختار.

تتسع ابتسامته لمقاطعة أفرين ويكمل:

- عليه الصلاة والسلام، كان فيه وحش ظالم.

تارة أخرى تقاطعه بصوتها العذب وكلماتها السريعة ولغتها التي تنطق بها في سهولة:

- أزم أم أماياس أم أكسل؟

- تقصدين؟

- أسد أم فهد أم نمر.

- أزم، أزم متوحش وظالم جدا.

فاه بها طارق وهو يقطب حاجبيه مصطنعا مزيجا من الغضب والخوف ثم رفع سبابته أمام وجهها:

"أمر هذا الأسد بأن يقدموا وجبته من الحيوانات كبيرة السن فسأله الفيل: لماذا يا مولاي الأسد؟

فقال الأسد متباهيا بحكمته وخبرته: لأنهم عاجزون ولا عمل لهم سوى تناول الطعام والشراب فلا فائدة منهم.

هنا تدخل القرد الحكيم قائلا: لكن يا مولاي إن افترست الحيوانات كبيرة السن؛ نكون قد خسرنا خبرتهم وحكمتهم.

هز الأسد لبدته وزأر في قوة: أنا هنا الحكمة والقوة، هيا نفذوا الأمر.

مرت الأيام والشهور والأسد يتناول طعامه من الحيوانات الكبيرة حتى استيقظ يوما وزئيره يهز أشجار الغابة من ألم بطنه وصاح: أغيثوني، أنياب حادة تقطع أمعائي

بادره القرد قائلا: لقد كان جدي يعرف الدواء لشفاء بطنك يا مولاي.

صاح فيه الأسد: أحضره فورا.

أغمض القرد عينيه ورد في أسف: أنسيت، لقد التهمته منذ أسبوع يا مولاي.

وهكذ اختلطت أصوات كل الحيوانات وكل واحد منهم يقول:

- لقد كان أبي أو جدي الكبير أو عمي يعرف نباتا أو دواء لشفاء البطن لكنك أكلته. حتى عض الأسد شفته من الندم وزأر في شدة فصمتت كل الحيوانات، هنا تقدّم منه أرنب صغير، وقف أمام الأسد وقال بصوت هادئ:

- لقد خبأت جدي الأرنب الكبير في جحر بعيد حتى لا تأكله وهو يعرف ما يخفف ألم بطنك.

في سرعة ورجاء وفرح قال له الأسد مستعطفا: أحضره أيها الصغير المخلص وهو في أمان.

تقافز الأرنب وغاب فترة طويلة كاد الألم يقطع أمعاء الأسد حتى عاد أخيرا على مهل وقال: أعتذر عن تأخري يا ملك الغابة فجدي كبير وبطيء، وقد أخذ وقتا في تحضير الدواء.

هنا تقدّم الأرنب العجوز وقدّم الدواء فتناوله الأسد على الفور، بعد قليل زال ألم بطنه وامتنع عن افتراس الحيوانات الكبيرة فاطمأنت وعاشت تنقل للصغار الخبرة وحكمة الحياة من جديد".

الصغيرة أفرين تتابع حكاية طارق في صمت وفرح وهي تراقب قسمات وجهه التي تتغير حين يقلد أصوات الحيوانات أبطال القصة فتقطب حاجبيها وتزم شفتيها ويضحك لابتسامتها حتى فاجأته بقولها:

- أكيد الأرنب الكبير اسمه أمغار.

سألها طارق مندهشا:

- لماذا أمغار بالذات؟

- الجدة تافوكت دائما تنهي كل حكاية بأن تسمي بطلها أمغار على اسم ولدها الغائب، بالمناسبة آخر قصة حكتها لنا كانت حكاية الفيل والأرانب، سأحكيها لك.

ابتسم طارق لطلاقة الفتاة الصغيرة وجرأتها فأحب أن يطيل قعدتها معه لحين عودة أمناي فهز رأسه مشجعا فانطلقت تقول:

- الفيل الضخم يسير على بيوت الأرانب فيهدمها حتى اغتاظ شعب الأرانب منه واستشاروا حكيمهم الأرنب الكبير فقال لهم: لا يمكن هزيمة الفيل بجسده الكبير إلا بالحيلة والتعاون فيما بيننا، ثم فكر وقال: تعاونوا كلكم واحفروا حفرة كبيرة وغطوها بأغصان الأشجار ومثِّلوا أنكم تبنون بيوتا في الناحية المقابلة للحفرة حتى إذا سار الفيل نحوكم وقع فيها.

حدّد لهم الأرنب الحكيم مكان الحفرة فتعاونوا في تعميقها وتغطيتها بأغصان الأشجار الخفيفة ووقفوا يبنون بيوتا في الناحية المقابلة فجاء الفيل يهز جسده الثقيل فاتجه بسرعة ليهدم بيوتهم كما اعتاد، حين داست أقدامه الكبيرة على أغصان الأشجار وقع في الحفرة والأرانب تضحك وتقول: وقعت يا فيل بجسدك الثقيل وخرطومك الكبير.

أنهت أفرين حكايتها وهي تتغنى بالجملة الأخيرة وتهز رأسها، فأعجب طارق بسرعتها في الكلام واختصارها لأحداث كثيرة كانت يمكن أن ترويها لكنه فاجأها بتعليق:

- وكان الأرنب الكبير اسمه: أمغار.

ما كاد طارق يعقب بكلمته حتى ضحكت أفرين وأمسكت يده قائلة في حماس:

- تعال، أريك غرفة جدي عبدالله.

خرج طارق وراءها وهي تقوده نحو باب غرفة مغلق يجاور باب الحمام، تفتحه، تضيء النور، تنتظر أن يدخل، فوقف وهو شديد الحرج من تصرف أفرين السريع وانقياده لها، ولا

يدري أيعود إلى غرفته أم يدخل غرفة الجد، متمنيا أن يعود أمناي سريعا لينقذه من جموح الغزالة الصغيرة التي تدهشه في كل فعل تباغته به.

***

-20-

الغرفة مربعة، لا يوجد بها أثاث سوى صندوق مركون جوار الجدار، أعلاه صورة كبيرة لرجل تخطى الستين تجاورها صورة أخرى أبيض وأسود لفارس أربعيني يمتطي حصانا ويرفع بندقية قديمة، تلك البندقية هي نفسها المثبتة أعلى الصورة، في المقابل حِرام ثقيل ملفوف بعناية ولا شيء آخر وقعت نظرات طارق المرتبكة عليه، مما جعله يشعر بخيبة الأمل في الغرفة التي دلفها خلف أفرين.

- كنت سأريك غرفة جدي عبدالله بن يفاو لكن أفرين سبقتني.

في حدة يلتفت طارق لأمناي الواقف أمام الباب فهمّ أن يعتذر لكن الكلمات ذابت بين شفتيه، خطا أمناي إلى الداخل، ربت على كتف أخته الصغيرة وهو يقول:

- هذه صورة جدي عبدالله والأخرى الباهتة لأبيه يفاو محارب الطليان وهذه بندقيته.

اتسعت عينا طارق في دهشة وسأل في جرأة:

- جدك الكبير حارب مع عمر المختار، لقد شاهدت فيلمه أكثر من مرة.

يبتسم أمناي، يخطو نحو الأغطية المركونة جوار الجدار، يفرد مفرشا من الصوف على الأرض، يجلس داعيا طارق للجلوس جواره ثم ينظر لأخته آمرا:

- أحضري لنا الشاي يا أفرين.

لكن الفتاة تهز كتفيها معلنة عن رغبتها في الجلوس معهما، زرّ أمناي عينيه مقرنا حاجبيه فابتسمت أفرين وهي تقول:

- سأحضره، لكن لا تحكِ عن جدي قبل أن أعود.

تتسع ابتسامة أمناي، يلتفت إلى طارق:

- لا تفوّت فرصة للحديث عن سيرة الجد يفاو إلا وتحب سماعها.

يصمت أمناي وهو يحملق في البندقية القديمة، فساور القلق نفس طارق أن يكون منقذه الكريم لا يريد الحديث أو تضايق من وجوده في هذه الغرفة فهمّ أن يؤكد عليه أن أفرين هي التي أصرت على دخولها، لكنه يحترم صمت أمناي الذي يطول ثم ينهض دون سابق إنذار، يمد يده، ينتزع البندقية من بين المسمارين المدقوقين في الجدار، يقلبها بين يديه، لم يكن في حسبان طارق أن يمد أمناي يده بالبندقية إليه، يتناولها طارق، يشعر بثقل الحديد المصنوعة منه، يتحسس مؤخرتها الخشبية السميكة، يقرّب فوهتها من أنفه، لا رائحة للبارود بها.

- قلت أنك شاهدت فيلم عمر المختار؟

يرفع طارق وجهه إلى أمناي ويجيب متشجعا:

- مرات.

- جدي الكبير يفاو حارب الطليان، قتل منهم الكثير، روى ابنه جدي عبدالله أنه ظل لسنوات يحتفظ بخوذة حديدية لجندي إيطالي في بيته القديم بغدامس، تركها هناك بعد انتقاله بعائلته هنا في زلطن لكنه رأى المختار مرتين فقط.

- حسبت أن جدك لم يفارق عمر المختار.

ندت عن أمناي ضحكة خافتة، هز رأسه وهو يعقب:

- رآه مرة بعد معركة رأس القلة، حين اجتمع المختار مع كبار المجاهدين لتبادل خطط الجهاد ضد المحتلين الطليان، وخاصة بعد أن جاءتهم أخبار ثورة سعد زغلول في مصر سنة تسعة عشر.

- والمرة الثانية؟

- عندما رآه مشنوقا بمدينة سلوق ببنغازي.

بصوت مسموع يزدرد طارق لعابه فتحركت تفاحة آدم صعودا وهبوطا، قبل أن يتماسك ويسأل:

- رآه بعينه؟

- نعم، وعندما حدث هياج أثناء وضع رقبة سيدي عمر داخل حبل المشنقة، ضرب الجد يفاو أحد الجنود لكنهم تغلبوا عليه وأصيب بجرح كبير في رأسه؛ عاش بعدها منكسرا حتى مات عام أربعين وهو في السبعين من عمره، ولم يشهد هزيمة الطليان في الحرب الكبيرة.

- والمعارك التي قلت أنه هاجم فيها الجيش الإيطالي؟

- اشترك مع المجاهدين في معركة سيدي سعيد بالقرب من تامورت أقصد زوارة، بعدها بسنوات حارب حملة الجنرال في المشاشطة.

- الجنرال غراتسياني؟!

تتسع ابتسامة أمناي لطارق الذي ألقى بكلمته في بساطة، مشفقا على معلوماته الضئيلة التي لا تدري سوى ما شاهده في فيلم أسد الصحراء فهز رأسه موضحا:

- الجنرال في تلك الوقعة كان اسمه كاسينس، أما رودولفو غراتسياني فهو الذي حاربه المختار وعندما تم أسره، أمر هذا الطاغية بشنقه في سلوق بعد تمثيلية محاكمته بيوم.

لم يستطع طارق إخفاء إعجابه بشخصية أمناي وقدرته على سرد الأحداث بشكل عفوي صادق، همّ أن يسأله لكن أفرين دخلت وبين يديها طاولة الشاي الصغيرة، برفق وضعتها

على المفرش فتأمل طارق رسوم الجمال عليه، جلست جوار طارق، زفر أمناي أنفاسه في هدوء وهو يستأنف كلامه:

- عاش جدي عبدالله حياة هادئة هنا في زلطن، لكنه لم ينقطع عن أهلنا في غدامس حتى أنه زوّج عمتي بواحد من عائلتنا هناك.

- رأيت جدك عبدالله يا أمناي؟

- كنت في العاشرة عندما مات، كان هادئا وديعا، لا أنسى أنه كان يضع أصابعي المضمومة بين يديه الكبيرتين ليدفئهما من البرد، ربنا يرحمهم جميعا.

يصمت أمناي فتنهض أفرين التي اغتاظت لعدم سماعها كلام أخيها عن الجد يفاو، تخرج من الغرفة فيسود الهدوء فلا يُسمع سوى صوت رشفات الشاي من آن لآخر حتى أنهى أمناي كوبه في سرعة قائلا:

- بعد أن تشرب الشاي نتنزه ببستاننا ومزرعة الغنم.

دق قلب طارق لهذا الاقتراح فرشف ما تبقى من الكوب دفعة واحدة، نهض في سرعة، تبع أمناي إلى غرفة صقر.

- سآتيك بلباس من عندي حتى يتم تنظيف ملابسك.

يغيب أمناي دقائق مرت على طارق وعقله مشوش من كثرة التفكير لما رأى وسمع، والتاريخ الذي لم يدرسه حتى توقف عن التفكير وأغمض عينيه في استسلام إلى أن عاد أمناي وبين يديه قطع بيضاء، فرد الواحدة تلو الأخرى:

- اخلع جلباب النوم هذا وارتدِ القميص والسروال.

يرتدي طارق القميص القصير، يجده واسعا لكن طوله مضبوط، يفرد أمناي الصديري فيدخل طارق ذراعيه في فتحتيه الواسعتين، بكفه يرفع أمناي قلنسوة حمراء صغيرة ثم يثبتها على رأس طارق الذي ابتسم، وهو يرى قامته في المرآة المثبتة على الجدار، وكأن الزمن عاد به إلى الوراء فتخيل نفسه واحدا ممن عاشوا زمن عمر المختار، وحارب معه منطلقا على فرس قوي مطاردا الجنود الإيطاليين بين جبال ليبيا وصحاريها الممتدة، أخرجه من نوبة الخيال الخاطف صوت أمناي:

- هيا.

سار أمام طارق حتى خرجا من باب البيت إلى فناء واسع حوله سور قصير أمامه سور آخر من أشجار السرو العالية، جوار السور حظيرة بابها مفتوح والفراخ تروح وتجيء حولها وهي تلتقط بمناقيرها الحب المنثور بالمطرح الواسع، يتجهان نحو باب السور الخشبي، يتوقف أمناي مشيرا بسبابته إلى شيء مركون أسفل إحدى الأشجار، تدور رأس طارق نحوه فتجحظ عيناه وتتسارع خطواته نحو القرص الخشبي الكبير الذي نجّاه من الغرق، يقعى أمام الحبل المطوي حول الخطاف الحديدي، بأصابعه يتحسس الأخشاب التي يبستها أشعة الشمس، يبتسم له كصديق قابله بعد طول فراق، لم تلبث أن غامت الابتسامة ليحل مكانها عبوس وجهه لتذكره آلام تلك الساعات القاسية التي مرّ بها وهو عالق بهذا الطوف، ضائع في متاهة البحر، لا يدري إلى أي اتجاه تلقيه الأمواج.

يربت أمناي على كتف طارق فنهض ودمعة ترقرقت بعينه، زفر نفسا ممطوطا قبل أن يقول:

- لنخرج.

خطا أمناي نحو باب السور يتبعه طارق، ومن حين لآخر يلتفت وراءه وهو يرمق قرصه الخشبي ويشعر بحنين جارف لإنقاذه إياه، فلولاه لظل ساعات يسبح في البحر حتى يغوص من فرط التعب وبرودة المياه أو لهاجمته أسماك القرش ومزقت جسده الرفيع

بأسنانها الحادة، يقف هنيهة أمام باب السور، يلقي نظرة أخيرة عليه ثم يمضي وراء أمناي الذي سار في مدق ترابي نحو البستان.

***

سارا متجاورين وطارق من آن لآخر يتأمل نفسه بالزي الليبي، يتمنى ألا يخلعه حتى إن قدّر له العودة إلى مصر، قطع تأمله توقف أمناي قرب بيت من الطوب اللبن تجلس أمامه سيدة لا يبين من ملبسها الأسود سوى وجهها وأصابعها القابضة على منسأة غليظة من الخيزران، يميل أمناي ناحيتها فيتبعه طارق:

- إنها الجدة تافوكت أم أمغار.

يقتربان، يتأمل طارق وجهها المستدير، تجاعيده تخفي بين طياتها جمالا أفل تحت ركام السنين، شفتاها النحيلتان ترسمان ابتسامة باهتة، تمد كفها، تتلاقى أصابع أمناي بأصابعها المتغضنة، يبتسم لها وهو يقدّم لها طارق:

- صديقي طارق يا أم أمغار، من بلد بعيد في الشرق.

بصوت عالٍ حادثها أمناي وهو يشير بسبابته إلى طارق ثم يفرد كفه ناحية الشرق فتهز العجوز رأسها أمارة الفهم، تتسع ابتسامتها فتكشف قرب فراغ فمها والوشم الباهت يزين ذقنها، تشير إلى طارق فيقترب مادا إليها رأسه، يتأمل خطوط وجهها المتقاطعة وبؤبؤ عينها دائم التحرك وسط بحيرة من الدموع، يخرج صوتها بلهجته المميزة كأنه نابع من أعماقٍ بعيدة:

- اطرق باب النجاة، عد إلى أمك.

- سيعود إن شاء الله يا أم أمغار، دعواتك له أن تتيسّر له سُبل العودة بالسلامة.

ترفع السيدة وجهها نحو السماء الصافية وتتمتم بكلمات عبثية عجزت أذنا طارق عن تمييز حرف منها ثم أردفت بصوتها العميق:

- احمد الله، اجبر بخاطر أمك ولا تجعلها تنتظرك مثلما أنتظر أمغار.

دون أن تفتر شفتاه بكلمة، يقبّل طارق يد الجدة تافوكت، فيشم منها رائحة جدته الراحلة يامنة، ينهض واقفا جوار أمناي الذي سلم بدوره على السيدة الكبيرة، يتراجعان مبتعدين، وطارق يود أن يسأل رفيقه عن حكاية تلك المرأة التي سمع سيرتها من أخته أفرين، ولم ير سيدة في مثل شيخوختها من قبل بأصابعها العجفاء ذات الأظافر المقوسة ووجهها ينضح بمرور العقود عليه، فلم يحرمه أمناي تلك الرغبة وكأنه قرأ ما في نفس طارق من فضول:

- سمعت من أمي أنها ولدت قبل نزول الطليان بسنة، زوجوها صغيرة، لم تنجب سوى ابن واحد هو أمغار، عندما علمت بموت عمر المختار، أمرت زوجها أن يطوف بفرسه قبائل الصحراء فيقودهم لقتال الأعداء، ذهب زوجها الشاب ولم يعد فتولت تربية ابنها أمغار حتى أصبح فارسا لا يشق له غبار، فأمرته أن يكون كأبيه، يجمع المحاربين من جوف الصحراء ضد الأعداء الذين احتلوا بلادنا بعد هزيمة الطليان في الحرب الكبرى.

يصمت أمناي، يزدرد لعابه ويواصل:

- لكنها الصحراء يا عزيزي طارق، كالبحر الذي نجّاك الله منه، قد يجازف الأبطال ويخترقونها، لكن القليل يخرجون منها والكثير لا يعودون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهذا ما حدث مع أمغار، طالت غيبته حتى يئست الأم من عودته وانقضت سنون عمرها في الانتظار، تمضي ليلها تتأمل السماء وتقعى بالنهار أمام بيتها، من حين لآخر يلتف حولها الصغار لتروي لهم الحكايا التي غالبا تنهيها بالدعاء لأمغار بالعودة من جوف الصحراء؛ حتى جعلت بطل كل حكاية ترويها هو أمغار الذي سيخلص البلاد من ظلم العباد.

يصمت أمناي فيلتفت طارق نحو السيدة المتكومة أمام عتبة بيتها ويسأل:

- ومن يعولها؟

- الجدة تافوكت محبوبة البلد كلها، وأهل الخير لا يتوانون عن برها والعطف عليها.

يبتعدان عن بيت السيدة التي بدت لطارق من بعيد كشخصية أسطورية ممن قرأ قصصهم في مكتبة المدرسة، ألقى نظرة أخيرة على الجدة تافوكت ثم أدار دفة الحديث عن تلك البلدة النائية، فعاد يسأل أمناي:

- لكن زلطن ليست كبيرة فالبيوت قليلة و...

يقاطعه أمناي في حدة:

- يا أخي، بيتنا وتلك البيوت القليلة في ضاحية قريبة من زلطن المدينة، سنصلي هناك غدا إن شاء الله.

- صلاة يوم أسيمواس.

يبتسم أمناي لتعليق طارق ويهز رأسه مؤكدا:

- هو ذا، صلاة الجمعة في المسجد الكبير بالمدينة، ها هو بستاننا.

تعريشة العنب الممتدة وأشجار التين المتجاورة تبهر نفس طارق، تزيل منها بقية من قلق، يقتربان من الحديقة الكبيرة بلا سور يحيطها، على حصير كبير يجلسان متجاورين، يقبل عليهما رجل ستيني نحيف، تبرز عظام صدره، يحمل بين يديه قفة صغيرة مضفورة من سعف النخيل، يلقي السلام عليهما، يضع الفاكهة بينهما فيهم طارق بالوقوف، لكن أمناي يمنعه قائلا:

- شكرا يا عم فزّاع.

يبدو على الرجل أنه لم يسمع فاستدار دون أن ينطق بكلمة، تابعته عينا طارق حتى اختفى بين غابة أشجار التين.

- إنه فزاع، حارس البستان، يعمل كثيرا ويتكلم قليلا، هيا، تناول الفاكهة يا طارق، جناها فزاع توا من أغصانها.

يمد طارق يده، يتناول حبة تين فيشعر بطعمها المسكر، يلوكها في فمه، بعد فترة صمت قصيرة تراوده الرغبة في مناقشة أمناي في مسألة عودته، لكنه يفاجأ بالشاب ذي العقل الفطن يسأله:

- قلت لي أنك كنت في حوش الفضيل.

- نعم.

- وسعدون أخذ منكم جوازات السفر هناك؟

- قبل ركوب السفينة المشئومة بساعة، سلب سعدون والفضيل كلَ أغراضنا وبطاقة الرقم القومي وحقيبتي الصغيرة وبها ملابس ومنشفة وكتاب تعلم الإيطالية، ضاع جواز السفر وضعت معه.

- يا أخي، تفاءل بالخير تجده، ذكرني بالذي يعمل لدى الفضيل.

شرد طارق بخياله في تلك الأسابيع المنقضية التي عاشها مع رفاقه في حوش الفضيل، وكل منهم يشعر بالوحدة مع ذاته المنتظرة ركوب السفينة للوصول إلى الشاطئ الآخر ثم أجاب:

- هو نفسه كان يخدمنا، وعندما كان يغيب، يقدم لنا الطعام مساعد له لا أعرف اسمه الحقيقي ولكن كان يناديه بـ عكرة، رجل أبله، تافه، يتكلم كثيرا بداع وبدون داع، يطلب منه البعض شراء علب الدخان والطعام، طوال الوقت يدور حولنا يشحذ منا النقود، يخلط ما يقول بكلمات إيطالية مما يسمعها، يتناول سيرة مهاجرين مروا عليه في الحوش

وخدمهم وهم الآن من أصحاب الأملاك في إيطاليا والنمسا وفرنسا وصقلية، لا يمر يوم إلا ونتناوله بالنكات والضحك عليه.

يهز أمناي رأسه وحاجباه يتقاربان، يزم شفتيه وإصبعه يرسم أشكالا غريبة على التراب، بتردد تتحرك شفتاه فتخرج كلماته متكسرة على غير عادته الواثقة:

- ما سأخبرك به يا طارق، لم أحدّث به إنسانًا في حياتي ولا حتى أبي.

- خيرا يا أمناي.

- أخي صقر.

- يرحمه الله إن كان ميتا، يعود بالسلامة إن كتبت له النجاة.

- كتبت له النجاة ولم تكتب له النجاة.

احتار طارق من جملة أمناي الأخيرة، شعر أن الشاب يخفي شيئا خطيرا يريد أن يبوح به، فصمت تاركا أمناي يفكر ثم يتحدث دون سؤاله:

- ليلة سفر صقر كانت قارسة البرودة، انقلب القارب المطاطي مثل غيره من القوارب على بُعد كيلومترات قليلة من الساحل، لكنه استطاع بعزيمته وقوته أن يسبح نحو الشاطئ، وصل منتصف الليل، لي صديق منذ أيام دراسة الابتدائية يسكن في منطقة منقطعة من زوارة، شاهد بعينه بعض الشباب يصارعون الموج البارد للوصول إلى البر وعندما تمددوا على الرمال، همّ أن يسرع نحوهم؛ ليعاونهم ويسعفهم لكنه رأى...

يصمت أمناي، يهز رأسه في أسف وشفتاه ترتعشان فيتشجع طارق ويسأله:

- لكن ماذا؟

- أخبرني أنه رأى أعوانا للمهرب الذي أركبهم المركب يسرعون نحوهم ويدفنون وجوههم المتعبة في الرمال، يخنقونهم ثم يحملونهم في قارب آخر ويرمون جثثهم في عرض البحر.

يزدرد طارق لعابه في صعوبة وقشعريرة تسري في كل أوصاله ويسأل في هلع:

- ينجون من الغرق ويقتلهم أهل بلدهم؟

- هم وكل من عاد؛ حتى لا يطالبون بمالهم أو تستجوبهم الشرطة عمن هرّبهم.

يضرب طارق كفا بكف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- آه يا طارق، لو أن أخي صقر وجد من يحمله بعيدا عن الشاطئ لكتبت له السلامة وعاد.

- قد يكون صقر ليس واحدا منهم.

- بل ميّزه زميلي، عرف وجهه وخاف إن رآه هؤلاء السماسرة يقتلوه بلا تردد حتى لا يشهد عليهم أو يخبر أهل الشباب عنهم.

- ولماذا لم تصحبه إلى الشرطة للإبلاغ عن الجريمة؟

- في اليوم التالي سافر زميلي الشاهد الوحيد على جريمتهم مع عائلته إلى طبرق، أمضى شهرا هناك، وعندما عاد أخبرني بما رأى بعد أن جعلني أقسم ألا أروي ما شاهده لأحد.

يطبق أمناي شفتيه مطرقًا رأسه فيستعيد طارق ما فعله منقذه الشهم القوي الذي لم ينتشله من موت الغرق وإجهاد الجوع وبرودة المياه فحسب بل حرص على إنقاذه من براثن وأنياب سعدون ومعاونيه إن عثروا على ناجٍ منهم.

دار بخاطره ما يكون قد حدث لرفاق هجرته ممن قاوموا الغرق وانتصروا على وحشية البحر ونجوا من أنياب القرش فقدّر لهم الوصول إلى الشاطئ، تخيّل روماني وعشاري أو الشاب الصغير حجّار، سبحوا حتى الشط واستقبلهم سعدون وعصابته بالموت وإلقاء جثثهم في الماء فهز وجهه في قوة طاردا تلك الصورة البشعة من خياله، متمتما بحمد الله على إنقاذه، فاغرورقت عيناه بالعبرات التي انهمرت في غزارة مبللة وجهه فربت أمناي على كتفه:

- هوّن عليك يا أخي، الدنيا بخير واشكر الله عز وجل أنك حي ترزق.

يعقب طارق وهو يغالب دموعه:

- حي أرزق بعيدا عن أهلي، لا أدري كيف أعود إليهم.

- كما قلت لك يا أخي، تفاءل بالخير تجده، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا، هيا لنعد إلى البيت فالشمس اشتدت أشعتها.

نهضا في بطء، نادى أمناي على فزّاع الحارس فأقبل نحوهما.

- سأعود إليك قرب المغرب يا عم فزاع.

أومأ الرجل برأسه فاستدار أمناي تبعه طارق، سارا صامتين حتى اقتربا من بيت الجدة تافوكت فلمح طارق لفيفا من الصغار يجلسون حولها منتظرين أن تبدأ حكاياتها اليومية.

- قعدتهم تذكرني بأيام زمان حين كنت أحرص أنا وأخي صقر وأولاد الناحية على الجلوس حول الجدة تافوكت نستمع لحكاياتها المسلية.

قالها أمناي وهو يسرع، سارا متجاورين حتى وصلا إلى البيت، اجتازا الباب فوقف طارق أمام قرص الخشب، ربت على أخشابه المتآكلة بفعل المياه المالحة والشمس ثم سار إلى

الداخل وفي نفسه اعتزاز كبير بمعرفة أمناي وأسرته، يود لو يقدّم لهم شيئا، أي شيء مقابل إنقاذ أمناي لحياته واستضافته هو وأختيه الكريمتين طوال الأيام الفائتة.

***

- سأغيب عنك لكن لن أتأخر إن شاء الله، إن يعوزك شيء اطلبه من أفرين.

قالها أمناي وهو واقف أمام باب الغرفة ثم استدار موليا طارق ظهره، فازدرد لعابه وهمّ أن يسأله لكن لسانه انعقد خجلا فأغلق الباب وعيناه تودعان قامة أمناي المبتعدة، قرر أن يمضي القيلولة في النوم، لا سيما بعد أن ران عليه النعاس، تثاءب، أغمض عينيه منتظرا الولوج في دنيا الأحلام بعودته لكن أهدابه تباعدت، تحدّث بصوت حرص ألا يكون عاليا:

- حكمتك يا رب، من يومين كنت مثل برص ملتصقٍ على قرص خشبي أقاسي الجوع والبرد وجنون الوحدة والخوف من رؤية الموت بعيني غرقا أو بين أسنان القرش، ينقذني شاب معنى اسمه الفارس، يستضيفني في بيته، يعالجني من مرضي ويطعمني ويسقيني، يلبسني هدمة من هدومة، أنام في غرفة أخيه كأني واحد من أهل بيته، أنت أشجع إنسان يا أمناي، أكرم رجل قابلته في حياتي، تخيلتني صقر أخاك الذي قتله السماسرة الخونة وأنقذتني من الغرق والمرض ومن سكاكينهم التي يذبحون بها أي عائد من البحر.

يصمت طارق، يعجز عن منع دموعه الحارة التي فرت من عينيه، بكفه يمسح وجنته، يخرج صوته مختنقا:

- الله يرحمك يا روماني، يا حجار، عشاري، رحيم، يرحمكم ربنا جميعا إن كنتم غرقتم بعد غرق السفينة أو قتلكم المجرمون بعد نجاتكم، ربنا رحمك يا عربي، مت واندفنت في البحر قبل ما تقاسي الغرق، لا حول ولا قوة إلا بالله.

بطرف عينه الدامعة، يلمح كيس عربي ملفوفا على المنضدة، يعض شفته في أسف، يميل ناحيته، يتناوله، يفتحه، أصابعه تسحب عملات اليورو الورقية، يعدها، ثلاث ورقات من فئة المائة، أربع من فئة الخمسين، خمسمائة يورو هي زاد مهاجر إلى أوروبا لا يدري هل

تكتب له النجاة أم تغوص معه في البحر، لكنه غرق بعد أن أورث رفيقه كل ما يملك من حطام الدنيا، تارة أخرى يستأنس طارق بصوته المحزون:

- إن قدرت لي العودة، سأسافر إلى دمياط، سأرد المبلغ إلى أبيه، سأجعل قلبه ينفطر على ولده الذي فرّط فيه لشراء خاطر زوجته وأولادها، سأزعق في وجهه: كان بين يديك كنز يا أبا عربي وضيعته.

برفق يضع طارق المبلغ على المنضدة، تفتر شفتاه عن ابتسامة باهتة وهو يسحب الورقة المطوية التي بها عناوين وأرقام هواتف معارف عربي في ميلانو، فردها فانسلت منها ورقة مربعة صغيرة، استقرت أمامه مقلوبة، بأنامله التقطها، رفعها أمام عينيه اللتين جحظتا لصورة فتاة ذات وجه خمري يميز أهل الشواطئ وأنف صغير مدبب، شفتين رقيقتين تميلان إلى السُمرة، الإيشارب الأخضر يظهر مقدمة شعرها البني.

يقلب طارق الصورة لعله يقرأ اسما لصاحبتها لكن الصورة بلا اسم عليها، تارة أخرى يتأمل الفتاة التي أيقن أنها لم تبلغ العشرين من عمرها، ضربات قلبه تتسارع، يكز أسنانه غيظا فيسمع صريرها الحاد، نوبات من ندم تجتاحه لترك صديقه تفيض روحه بمفرده، أخذ يلوم نفسه لتأخره في العودة إليه، ربما إن كان جواره لأخبره بسر صاحبة تلك الصورة أو أوصاه بما سيقوله لها، انقلب الندم إلى غضب عارم على زوجة أبيه التي تسببت في اقتلاع عربي من بيته وورشته ومهنة النجارة الماهر فيها، يود لو يطير إليها فيخنقها كما خنقت مستقبل وأحلام عربي وقضت على حبه لتلك الفتاة، ربما تواعدا على الزواج، لكن فعلة تلك المرأة وأولادها حرمته حتى من الحب.

في جوف نفسه المنكسرة تجذرت العزيمة على العودة، أصر على السفر إلى دمياط والبحث عن ورشة أو مصنع والد عربي، ربما تلك الفتاة جارته أو قريبته ويحتفظ بسر حبهما في قلبه لكن موجة الإصرار انحسرت أمام تفكير طارق في قلب الفتاة صاحبة الصورة، الذي سينشطر حزنا عندما يصلها خبر موت حبيبها قبل أن يصل إلى إيطاليا، ربما خططا معا أمر الهجرة وساهمت معه في تدبير مائة أو مائتي يورو، وتنتظر اتصاله بها من هناك وعودته

بعد شهور أو سنة ومعه المال اللازم للبدء في إنشاء مصنع صغير، يكبر مع مرور الوقت ويستكمل كل آلات النجارة فيه.

آهة ممطوطة انفلتت من صدر طارق فشعر بوجع قلبه على حلم عربي الذي غرق معه في البحر، قرر ألا يذهب إلى دمياط، فضل أن تعيش تلك الفتاة أياما وأسابيع أخرى على أمل وصول عربي واتصاله بها؛ فلا يكون السبب في فجيعتها وانكسار قلب أبيه وفرح زوجته الحاقدة بالتخلص تماما من عربي.

تأمل الوجه الهادئ، عيناها ذات الأهداب المسحوبة تسألانه عن عربي، يطبق أجفانه، يمسح الدموع الذارفة على وجنته، يفتح عينيه، يمط شفتيه في أسف، يعيد الصورة الصغيرة إلى ورقة العناوين، لفها جيدا، وضعها في كيسه الخاص أما الخمسمائة يورو فأضمر في نفسه ما سيفعله بها، تمدد على الفراش، شبك أصابعه خلف رأسه، من بين أهدابه يطفر وجه عربي وهو يبتسم له ابتسامة الرضا، تمتم طارق بقراءة الفاتحة على روح رفيقه والدعاء له بالمغفرة فهو الآن بين يدي الله، ولا تجوز عليه غير الرحمة.

ما إن نعس حتى أفاق من غفوته على طرق بالباب، نهض فاتحا إياه فاستقبلته ابتسامة أفرين وبين يديها طبق عنب وتين وجوافة، دخلت الغرفة ووضعت الفاكهة الغضة جوار الكيس البلاستيكي وهي تقول في مرح:

- أزعجتك؟

- لا، هل عاد أمناي؟

- لم يعد ومرّ الوقت دون أن تخرج من الغرفة فقلت أتناول الفاكهة معك.

- كنت سأنادي عليكِ حالا وأطلب منكِ التين الأخضر.

يجلس على الفراش فاردا ساقيه فتقدّم له أفرين ثمرة تين، ما إن يقضم نصفها حتى دخلت تالا تحمل طاولة عليها أكواب الشاي، فهبت نسمة هواء رخية شعر طارق بطراوتها على وجهه، أراد أن ينهض فوضعت تالا الطاولة جوار طبق الفاكهة وهي تقول في سرعة:

- لا عليك، استرح.

على المجلس تجلس قبالته، تقدّم له كوب الشاي الساخن ثم تتناول كوبها وترشف في هدوء فيتشجع طارق ويسألها مبتسما:

- متعلمة يا تالا؟

تهز رأسها وهي تبتلع رشفة الشاي وتتحدث بصوت واثق:

- أنهيت السنة الأولى من قسم اللغات الأفريقية بكلية اللغات.

- جامعة عمر المختار؟

- لا، جامعة الفاتح بطرابلس، هي الأقرب من زلطن.

يهز طارق رأسه وهو يستفسر:

- تدرسين اللغات واللهجات مثل اللهجة الأمازيغية؟

- الأمازيغية ليست لهجة بل لغة لها أسماؤها أفعالها وأبجديتها بحروف تيفيناغ مثل العربية.

تشارك أفرين في الحوار بعد قضمة كبيرة من ثمرة جوافة:

- عمتي ماتيا تتكلم تيفيناغ بجانب العربية.

تضحك تالا وهي توضح:

- معظم أهلنا في غدامس والواحات الجنوبية في الصحراء يتحدثون فيما بينهم بالأمازيغية، لكنني أدرس أيضا اللغات الأفريقية المحلية ولهجاتها.

يبتسم طارق لطريقة حديث البنتين العذبة التي بدأ يعتاد عليها، ازداد إعجابه بتالا التي بدت مثقفة بعد أن علم أنها طالبة جامعية تدرس اللغات مثل كلية الألسن بمصر وينتظرها مستقبل كبير، ران صمت على ثلاثتهم فلم يُسمع سوى رشفات الشاي لكن أفرين قطعته بطلاقتها المعتادة:

- أبي يهتم بتعليم البنات مثل الأولاد، ليتك تبقى معنا لحين عودته وتتعرف عليه، سيعود بعد غد أسيدياس.

- السبت إن شاء الله يا أفرين.

- ها أنت الآن تعرف لغتنا.

- يا ليت، لكنك قلت بعد غد واليوم هو أكواس على ما سمعت من أمناي.

تتسع ابتسامة تالا لتعليق طارق الطريف وسرعته في استيعاب أسماء أيام الأسبوع، فيرى في وجهها جمالا لم يلحظه من قبل فأحبّ أن تطول جلستهما معه فسأل:

- إن كان لا يحرجكما، أحب أن أعرف، ماذا كان يفعل أمناي قرب الفجر عندما وجدني؟

تجيب أفرين في سرعة:

- يصطاد السمك.

تضيف تالا بطريقتها الراسخة:

- أخي أمناي يحب الصيد في ذلك الوقت، حكى لي أنه عندما همّ بدفع قاربه الصغير في البحر، رأى ألواحا خشبية مستديرة يدفعها الموج فأسرع بانتشالها واندهش لجسدك المربوط بحبل عليها.

- عندما يئست من النجاة، ربطت جسدي في ذلك القرص الخشبي وتركت مصيري من مصيره، إن غرق غرقت معه وإن دفعه الموج نحو أي شاطئ نجوت معه.

تزر أفرين عينيها وتتسع ابتسامتها فتظهر غمازتان عذبتان بجانبي وجنتيها وهي تعقب:

- أحب القرص الخشبي أن يتخلص من ثقلك عليه فاندفع نحو الشاطئ مستغيثا بأخي أمناي ليفك الحبال ويخلصه منك.

فور انتهاء عبارتها المازحة ترتفع ضحكتها الفضية الرنانة في الغرفة، فتضربها تالا ضربة خفيفة على كتفها وهي تشاركها الضحك، ناظرة إلى طارق في خجل وهو بدوره يبتسم لظرف الفتاة الصغيرة وقدرتها على تطويع الموقف على هيئة نكتة عابرة فشاركهما السرور، الذي أفاض على قلبه محبة لتلك العائلة المضيافة وعشرتها الحميمة فتشجع قائلا:

- بمناسبة الموقف، سأقول لك نكتة يا أفرين: رجل قاعد على الشط أمامه واحد يغرق كل ما يرفع ذراعه مستغيثا يرفع القاعد على الشط يده ويقول: وعليكم السلام ورحمة الله.

تنفجر قهقهة الفتاتين مجلجلة أرجاء الغرفة، يشاركهما طارق الضحك وشعر لأول مرة بانشراح قلبه بعد الحزن، والأنس بعد الوحشة فتبادلوا جميعا نظرات أسرية حتى هدأت ضحكاتهم، فقالت تالا والابتسامة لم تفارق شفتيها:

- سمعت أن المصريين لا يغلبهم أحد في النكات.

- لا تمش يا طارق، ابق معنا.

قالتها أفرين برجاء فحدجتها تالا بنظرات الاستنكار.

- أستاذ طارق يا أفرين، تأدبي.

- بل طارق يا تالا، أخوكم طارق، والله ما تمنيت أخوات أعز منكم وما قابلت في حياتي أفضل منكم، أشكركم على كل ما فعلتم من أجلي.

تنهض تالا حاملة طاولة الشاي فتبعتها أفرين:

- لا شكر على واجب، نتركك الآن تستريح لحين عودة أمناي، هيا يا أفرين.

تمد تالا أصابعها نحو النتيجة المعلقة خلف الباب فتنزع ورقة وتستدير، تخرج الفتاتان، يقف طارق، يقترب من التقويم المعلق أمامه، قرأ بصوت مسموع:

- اليوم الخميس الثالث عشر من أغسطس ألفين وتسعة يوافق اثنين وعشرين من شعبان ألف وأربعمائة وثلاثين.

مط طارق شفتيه وباعد ذراعيه بطريقة مسرحية، يعلو صوته قليلا:

- سافرت يوم الخميس ثلاثة وعشرين يوليو، أختي رضوى كانت تشاهد فيلم رد قلبي، بعدها غيرت القناة ليبدأ فيلم غروب وشروق، تركتهم وسافرت وأمي الطيبة دعت لي وهي صائمة أول شعبان، الله عليك يا أمي، كل ما أنا فيه من خير بفضل دعواتك الكريمة، يا رب أرجع لك وأضمك لصدري.

تنقبض قسمات وجه طارق، يعض شفته أسفًا، يعود لرفع صوته وهو واقف أمام النتيجة:

- أسابيع مرت وأنا غائب عنكم، بما فيها أيام البحر المرعبة، يا رب أمناي يوفق في تدبير عودتي.

زفرة قوية أطلقها طارق، هز رأسه ثم توقفت نظراته فجأة لنتيجة أخرى معلقة على قيد شبرين، وقف قبالتها، أغمض عينيه وفتحهما لما يقرأ، صوته العالي يؤكد له أن ما يقرأه

حقيقة:

- الخميس الثالث عشر، هانيبال، ألف وثلاثمائة وسبعة وسبعين من وفاة الرسول محمد بن عبدالله.

جحظت عينا طارق، فلأول مرة يطلع على تقويم بوفاة الرسول، فالتقويم الهجري المعتاد من هجرة النبي إلى المدينة، والميلادي من مولد المسيح عليه السلام كما هو مدون في النتيجة الأولى، عجز عن إدراك ما رآه فقرر فهمه عندما يعود أمناي ويسأله.

شعر بثقل جفنيه فتثاءب في كسل، استدار نحو الفراش، تمدّد وقلبه مع كل خفقة يفيض سرورا، تمنى ألا يرحل، أن يمكث مع تلك العائلة، يعمل في بستانها ويقنع باليسير من الزاد في سبيل البقاء هنا، لكن بزوغ وجه أمه وأخته وأخيه كأقمار تضيء حياته وتبعث في نفسه أمل العودة ليواجه معهم معارك الحياة جعله يقلق على تأخر أمناي ليدبرا معا أمر السفر في الغد، فأخذ يتقلب على الفراش حتى راوده النعاس فنام متمنيا أن يعود أمناي قبل استيقاظه.

***

-23-

ما إن خرج أمناي من البيت حتى وقف قبالة أختيه تالا وأفرين فأوصاهما بتقديم الفاكهة والشاي لطارق بعد استيقاظه وتسليته لحين عودته، ثم غادر الفناء حاملا كيسا من تمر مما يبيعه المزارعون في أسواق القرى، اتجه مباشرة إلى موقف سيارات الأجرة، رأى من بعيد صبيا ينادي:

- واحد تامورت.

تسارعت خطوات أمناي حتى وصل إلى السيارة فركبها، معتبرا نفسه محظوظا أن الركاب اكتملوا في هذا الوقت بعد الظهر حيث يقل عدد المتجهين شرقا، تحركت السيارة في طريقها نحو زوارة التي تبعد عشرين كيلو مترا من زلطن، وقد تحددت معالم خطته، وقرر أن ينفذها في دقة وحذر شديدين حتى لا يقع في خطأ ينتهي به إلى مشكلة كبيرة تضطره إلى المبيت في زوارة وهو ما يحرص على ألا يحدث مطلقا.

أيقن أن طارق لا يستطيع الرجوع إلى بلده دون جواز سفر ففكر أن يقدّم بلاغا عن فقدانه، ولكن ذلك سيوقعه في مساءلات كثيرة، وقد يُخطئ بطريقة غير مباشرة، ويخبرهم عن هجرته في البحر وغرق السفينة، وهذا وحده سيجعله يواجه عاصفة من الاستجوابات لا نهاية لها، فقرر ألا يلجأ إلى الإبلاغ عن فقدان جواز السفر إلا بعد تلك المجازفة التي سيخوضها بنفسه وهو يرجو أن تسير وفق ما دبّر.

نصف ساعة مرت والسيارة تسرع تارة وتتوقف لحين نزول أحد الركاب تارة أخرى حتى وصلت إلى الموقف، نزل أمناي وفي يده كيس التمر، في ثقة خطا خارج الموقف مخترقا الشارع المؤدي إلى وسط المدينة، يظل سائرا وهو يتأمل المحال الجديدة التي لم يرها من قبل حتى الشارع المؤدي إلى آخر زوارة من جهة الجنوب، يعلم تماما أن الكثيرين من أهل زوارة يحترفون تهريب الشباب إلى أوربا، ولكنهم يشكون في أي غريب يسأل عن

أحواشهم مظنة أنه من الشرطة، حاذر أيضا أن يسأل أي رجل مفترضا أنه أحد المخبرين المتعقبين للشباب، جلس على أحد مقاعد مقهى متواضع، جاءه صبي المقهى فطلب شايا وهو يتأمل الجالسين حوله، وضع الولد اليافع الشاي أمام أمناي فقدّم له ورقة، همّ الولد أن يعطيه باقي المبلغ لكن أمناي فرد كفه أمام وجهه قائلا:

- أسأل عن حوش الفضيل، قريب من هنا؟

تأمله الولد في ارتياب لكنه نظر إلى الورقة المالية بعين طامعة فاقترب من أمناي:

- تريده أم تريد سعدون؟

- أريد الفضيل، أقصد رجلا طيبا يعمل في الحوش أظن اسمه...

- عكرة المخبول، أعرفه.

- أين أجده؟

يهمس الولد في أذن أمناي:

- يلزمك مخدر؟ حبوب أم...

- لا.. لا.. أريده هو.

- عد إلى أول الزنقة وسر في المقابلة لها، آخرها تجد مقهى الغريب، عكرة دائما يجلس هناك.

شكره أمناي، كي لا يشك الولد في شيء، جلس يشرب الشاي مصطنعا التمهل، ما إن أنهى ما في الكوب حتى غادر المقهى، مال ناحية الشارع الآخر كما وصف الصبي، وصل إلى قرب نهايته، جلس على مجلس أمام مقهى الغريب، وكالعادة أقبل عليه نادلها فطلب كوبا

من الليمون، دقيقتان وأحضر الشاب الليمون المثلج فشرب أمناي في اشتهاء شعر بعده بقدرته على التركيز، ففكر لو أن عكرة هذا تأخر إلى الليل أو أنه لم يأتِ أصلا في هذا اليوم فساوره القلق، لكنه لم يجد بدا في النهاية سوى الانتظار لبعض الوقت وإلا سيسأل مباشرة عن حوش الفضيل لكن رياح مغامرته أتت بما تشتهي سفن آماله، عندما جلس قبالته على مسافة ليست بعيدة رجل قصير جاءه النادل يسأله بصوت عالٍ في تهكم:

- طلباتك يا سيد عكرة.

كأفضل زغرودة رن الاسم في أذن أمناي، فدق قلبه في قوة وهو يتأمل هيئة الرجل فبدا كما وصفه طارق رث الثياب، رده على النادل يشي بأنه ملتاث، أتى له بنارجيلة وشرع يسحب نفسا ويخرج الدخان الكثيف من منخاريه مع رشفات الشاي بصوت مسموع، يراقبه أمناي دون أن يشعر به أحد، وعكرة من حين لآخر يحادث أشخاصا وهميين ويهز رأسه عقب كل جملة يتفوّه بها، رواد المقهى لا يبالون به كأنهم اعتادوا منه لوثة عقله منذ سنين.

همّ أمناي أن يقترب منه ويجلس معه، لكنه فكر أن ذلك قد يثير فضول أحد الجالسين لمعرفة العلاقة بينهما، خصوصا أنه لم يسلم على عكرة فور حضوره ففضل أن يصبر حتى يغادر الرجل جلسته فيتبعه ويحادثه في الشارع.

تارة أخرى يتحالف الحظ الحسن مع التوفيق، وينهي عكرة تدخين أحجار النارجيلة في سرعة، يرقبه أمناي وهو يهم بالنهوض، لكن رجلا كبيرا يقف قبالة عكرة ويسلم عليه في فتور فيعاود عكرة الجلوس قبالته، قلب أمناي يخفق في قلق للعطلة التي استجدت، أقبل النادل فأخذ الكوب الفارغ من أمام أمناي فطلب شايا، في خفية يرقب عكرة وضيفه فازداد ضيقا لأحجار الدومينو التي بعثرها عكرة، يرفع القطعة ويضربها على المنضدة في قوة فيؤلم الصوت أذن أمناي، بطرف خفي يلحظ أصابع عكرة تدس لفة صغيرة في جيب الرجل الآخر، ويتبادلان كلاما مبعثرا حتى وقف الرجل فجأة معلنا إنهاء اللعبة والمقابلة، يمد أصابعه المضمومة فيصطنع عكرة السلام عليه واضعا النقود في جيبه.

يبقى هنيهة بعد مغادرة الرجل ثم يتلفت يمنة ويسرة وينهض مغادرا المطرح المعبق بأدخنة غريبة ضاق صدر أمناي لاستنشاقها غصبا عنه، يبتعد عكرة قيد أمتار فيحاسب أمناي على الليمون والشاي، ينهض متتبعا عكرة وهو يحرص على بُعد المسافة بينهما، مع انحناء الشارع تتسارع خطوات أمناي حتى لحق بذلك الأبله، وقد رسخ في نفسه أنه أخطر مما وصفه طارق ويجب الحرص في التعامل معه، سار محاذيا له، نظر إليه مبتسما فلوى الرجل عنقه إليه فيبادره أمناي:

- السلام عليكم يا عم عكرة.

يزدرد لعابه وهو يرد باقتضاب:

- وعليكم.

- لك عندي هدية.

يتسع فم عكرة طمعا في هدية ذلك الغريب التي نزلت عليه من السماء فارتفع حاجباه للكيس المنفوخ بين يدي أمناي، دون أن يسأل عن اسم الغريب أو حاجته يأخذ الكيس، يفتحه، تفتر شفتاه عن ابتسامة كشفت اصفرار أسنانه، في لا مبالاة يهم بالسير لكن أمناي يستوقفه مادًّا إليه يده فيسلم عليه عكرة وتقبض أصابعه على عدة أوراق من فئة عشرة دنانير، فاتسعت عيناه وتدلى فكه فازداد بلاهة، هز رأسه وهو يضع الدنانير في جيب قميصه:

- تحت أمرك، تريد حبة، ما عندي الآن لكن...

اقترب أمناي برأسه فاصطدمت أنفه برائحة فم عكرة العفنة، افترت شفتاه عن ابتسامة قصيرة وهو يقول في صوت منخفض.

- أريد خدمة أخرى.

- هجرة، ممكن أخفيك في حوش الفضيل، أنا أعمل فيه.

- لكن خدمتك أن...

- جميعهم هناك غرباء ولا أحد يسألك عن بلدك، وفي موعد الركوب سأخفيك عن سعدون ولكن يعوزني مال كثير، كثير.

- اسمع يا شيخ، رحلت سفينة منذ أيام و...

يتلفت عكرة يمينا ويسارا وهو يضع أصابعه على فم أمناي محذرا:

- اسكت يا ولد، سمعت أن السفينة لم تصل بعد.

- غرقت؟

- لا أعرف، لكن لا خبر عنها.

شعر أمناي أن الرجل يتصنّع البلاهة ليستجدي المال، لكنه على قدر من الذكاء، ويجيب عن الأسئلة بطريقة محكمة وفي نفس الوقت المخدرات أصابته بلوثة تدفعه دفعا إلى الهذيان فلم يضيّع أمناي الوقت في أسئلة أخرى فباغته بالسؤال:

- جوازات السفر، ماذا تفعلون بها؟

- وأنت، لماذا تسأل؟

- سأرضيك بأكثر مما تتخيل.

- يحرقها الفضيل، أنا بنفسي أقوم بحرق بعضها بعد مغادرة السفينة.

كالصاعقة وقع رد عكرة على نفس أمناي فسقط قلبه بين ضلوعه لمغامرته التي باءت بالفشل ووأدها خبر حرق الجوازات، لكن الرجل أشاح بوجهه وهو يواصل السير قائلا:

- لكن جوازات شباب السفينة الأخيرة تركها سعدون ولم يحرقها الفضيل بعد.

تارة أخرى يدق قلب أمناي بعد أن أماته الرجل ثم أحياه بخبرين متضادين في نفس الدقيقة، فقرر طرق الحديد وهو ساخن وما دام عكرة لا يهمه إلا النقود فأمره سهل فبادره أمناي:

- عم عكرة أريد جواز سفر واحد فقط يهمني، اسمه طارق محمود.

- لا أعرف القراءة، على العموم أنا ذاهب إلى الحوش، حظك جميل، سعدون يأتي غدا والفضيل غير موجود.

- الحوش فارغ؟

- لا، به بعض الشباب جاء بهم سعدون من يومين ينتظرون السفر.

يعض أمناي شفته في غيظ، ودّ لو ينتظر سعدون والفضيل في الحوش وينهال عليهما ضربا، لكنه كتم غضبه وسار صامتا وراء عكرة والرجل لا يكف عن الدندنة حتى وصلا الحوش، فتح عكرة الباب فشم أمناي روائح غريبة، خليطا من العرق والنتانة؛ وضع منديلا ورقيا على أنفه وسار في ممر طويل حتى وقف أمام بابين، فتح عكرة أحدهما، أضاء المصباح الخافت، ركن كيس التمر، رفع زكيبة كبيرة وأفرغ ما فيها دفعة واحدة فاتسعت عينا أمناي لجوازات السفر التي كوّنت أمامه تلا فمد عكرة يده نحوها قائلا:

- فتش عن الاسم.

زاغت عينا طارق في الأغلفة البلاستيكية، بينما يكبش عكرة على التمر تفتح أصابع أمناي المرتعشة أول جواز سفر يلتقطه، شرع يقرأ الاسم والجنسية لكنه وجد هذه الطريقة

ستستغرق وقتا هو في حاجة لقطعه حتى يعود مسرعا إلى زلطن، شرع يفتح الجواز ويقرأ مباشرة جنسية صاحبه، في سرعة يركن كل ما هو غير مصري جانبا وتجري عيناه على اسم صاحب الجواز المصري أو بطاقته فلم يشعر بعكرة الذي تكوّم جوار الجدار وعلا غطيطه فلم يهتم أمناي به، توالت حركة أصابعه تفتش عن جواز طارق حتى اقتربت الكومة من الانتهاء ولم يظهر الجواز.

استحال غطيط عكرة إلى شخير عالٍ يشي بضيق نَفَسِه فخشي أمناي من قدوم صاحب الحوش فيقع في مشكلة كبيرة لتبرير وجوده وعكرة هذا عاجز عن حماية نفسه لا الوقوف بجانبه، فاتسعت عينا أمناي قلقا لانتهاء كومة الجوازات وبعض البطاقات الشخصية مبعثرة بينها، لم يعثر على ما يريد فلم يجد بدا من إيقاظ عكرة، هزه أمناي فأفاق في سرعة ونهض متثاقلا:

- يوجد كيس به جوازات كثيرة، سآتيك به.

ما إن خطا خارجا حتى علا صوتٌ جهوري:

- ولد يا عكرة.

من داخل الغرفة تنصت أمناي للصوت الغريب، ودق قلبه في عنف حين سمع عكرة يرد:

- أمرك سيدي الفضيل.

تسابقت حبات العرق منزلقة على رقبة أمناي فكتم أنفاسه وتمنى ألا تجبره الأحداث على الاشتباك بالفضيل الذي سمعه يأمر عكرة:

- وزِّع الخبز وعلب التونة على الشباب لحين عودتي، ولا تنس أن تحرق جوازات السفر.

- كنت سأفعل سيدي، أفرغتها وسأشعل النار فيها.

فترة من صمت مرت على أمناي وأنصال التوجس تنغرز في روحه المتحفزة للقتال، فلو أن الفضيل دلف الغرفة لرآه، لكن تناهت لمسامعه دبدبة أقدام فمكث مترقبا إلى أن عاد عكرة وبين يديه كيس آخر، فوقف أمام أمناي محملقا وكأنه يراه لأول مرة ثم تدارك الأمر وابتسامة دميمة بدت على وجهه.

الكيس أصغر من تلك الزكيبة الكبيرة فلم ينتظر أمناي فاختطفه منه، أفرغه في سرعة، يقلب في بقية الجوازات حتى ضاقت نفسه، ود لو يلكم ذلك الشيء الواقف قبالته في وجهه فيقضي عليه، لكنه فضل الاستمرار في البحث وهو يمسح العرق الناز على وجهه ورقبته حتى فتح أحد الجوازات فاتسعت عيناه لصورة طارق وليتأكد جرت نظراته على الاسم، فخفق قلبه في شدة وازدرد لعابه في صعوبة وهو يرفعه أمام عينيه المتعبتين:

- وجدته؟

بعينين يطل منهما الطمع يمد عكرة يده فأعطاه أمناي عدة ورقات أخرى وضعها دون أن يراها في جيبه، بصق من فمه نواة تمرة واستدار خارجا من الغرفة، قلب أمناي أوراق الجواز، وفي الصفحة الأحيرة حدّق في بطاقة الرقم القومي المثبتة بشريط لاصق شفاف، ازدرد لعابه في ارتياح، هدأت أنفاسه قليلا، تهيأ لمغادرة المطرح الكئيب فلم يلبث أن أقبل عكرة في بطء وبين يديه صفيحة، سكب منها السائل في غزارة فشم أمناي رائحة بنزين، قدح عودا من الكبريت، تراجع أمناي واضعا ذراعه أمام عينيه اتقاء النيران التي توهجت في جوازات السفر، عبقت رائحة احتراق أغلفتها البلاستيكية الغرفة الضيقة فتركها أمناي وخرج، وقف هنيهة أمام الباب الآخر، مد أصابعه، فتحه، جال بعينيه في وجوه الشباب من بين قاعد ونائم ومتكئ بكوعه على الأرض، لم يهتم أحد بنظرته السريعة فأغلق الباب وغادر الحوش وهو يلمح بطرف عينه النيران تلتهم هويات المهاجرين، كما التهمت أسماك البحر أجسامهم الغارقة.

***

-24-

يقف أول الحارة، ها هي رضوى وسط رفيقاتها كعادتها تلعب الحجلة، تدفع بقدمها الحجر وتنتقل من مربع إلى آخر، تستدير فتتلاقى نظراتهما، تصرخ باسمه، تجري نحوه، تتعلق برقبته فيحملها بين يديه ويدخل البيت، بذراعيه المفرودتين يستقبله إيهاب، تعانقه أمه فيضمهم جميعا إلى صدره والعبرات تتدفق من عينيه المغمضتين.

تتباعد أهدابه، لأول وهلة يغيب عن باله موضع نومته لكنه يستفيق بخمول فينتبه لمعالم حجرة صقر، يجلس على الفراش، تراوده أحداث حلمه الجميل فترتعش شفتاه ويهفو قلبه شوقا للعودة إلى عائلته، لكنه عاد يقنع نفسه أنه سافر للعمل لا متخليا عن أمه التي اعتبرته عامود البيت العائل لأخيه وأخته بعد رحيل أبيه.

تذكر جلسة تالا وأفرين منذ ساعات وابتسم لوجه الغزالة الصغيرة والذكاء ينضح منه، اصطدمت نظرته بالنتيجة الغريبة التي بها شهر غريب –هانيبال- تساءل في قرارة نفسه نحن في أغسطس وشعبان، وفي عام هجري وميلادي معروفين، فمن هانيبال هذا المكتوب؟ نفض ما يفكر فيه، شعر بالريق يغادر فمه، يجرع ما بالكوب، لم يرو الماء غير البارد عطشه، يضع الكوب على المنضدة فتتباعد جفونه جاحظا عينيه في الدفتر المركون جوار طبق الفاكهة، بلهفة تلتقط أصابعه جواز سفر، صدره يعلو ويهبط وهو يقرأ المكتوب على غلافه الأخضر اسم البلد باللغة العربية والإنجليزية، يقلب الصفحة وقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه لصورته وبياناته، ينتتر واقفا، يفتح الباب، يتخلى عن حذره، دون أن يشعر ينادي بعلو صوته:

- أمناي!!

من باب جانبي تخرج أفرين، بلهفة يخطو طارق نحوها، يسألها عن أخيها، قبل أن تجيبه يقبل أمناي خلفها، لا يدري طارق ماذا يقول، انعقد لسانه، يزداد جحوظ عينيه فقرأ أمناي

فيهما أمارات الشكر الممزوجة بالاستغراب والدهشة فقوّس ذراعه حول كتف طارق، عاد به إلى الغرفة، أجلسه على الفراش وطارق لا يزال ساهما، يريد أن يقول شيئا لكن الكلمات ذابت بين شفتيه المزبدتين بالتساؤلات، يلتفت أمناي نحو أخته المندهشة من الموقف غير المفهوم آمرا:

- ماء بارد يا أفرين.

أسرعت الفتاة لتحضر ما طلب أخوها حتى لا تتأخر عن سماع حوارهما، لم يتفوّه أمناي بكلمة تاركا المبادأة لطارق الذي وجم هنيهة ثم تناثرت الكلمات على شفتيه المرتعشتين:

- سافرت إلى زوارة؟

- الذهاب إلى زوارة ليس سفرا، كنا نمشيها قديما.

- كيف وصلت لحوش الفضيل؟!

- لم أسأل عن الفضيل أو سعدون، بحثت عن عكرة ووجدته.

يحني طارق رأسه لإجابة أمناي التي استشف منها ما فعله صديقه المغامر فهو يعرف بذكائه الصحراوي أن مكمن الخطر في هذين الرجلين، صاحب الحوش وسمسار الهجرة فابتعد عن طريق الصدام بينهما، واستعان بذلك المعتوه السكير فأرضاه بما يطمع مقتنصا من بين أظافره الوسخة جواز العودة إلى الوطن، لكنه تماسك قليلا وعاد يسأل:

- والفضيل وسعدون؟

- سعدون والفضيل غير موجودين، عكرة نفسه دلني على الحوش.

- بحثت في كل الجوازات التي جمعها في الزكيبة؟

- وغيرها في كيس آخر إلى أن وجدتك.

بوجه ممتقع ينظر طارق إلى أمناي وتارة أخرى تشرد الحروف من طرف لسانه فيهز رأسه وتلتمع العبرات في عينيه فيشعر أمناي بما يدور في نفس طارق، يربت على كتفه مطمئنا:

- لا شكر بين الإخوة يا طارق.

- لكنك خاطرت بـ...

- زوارة وشوارعها ليست غريبة عليّ، وأنا صغير كان أبي يصحبني لنبيع الفاكهة والتمر هناك.

- لكن سعدون لو عرف بأنك حصلت على جوازي قد...

تارة أخرى يقاطعه أمناي ويخرج صوته مصبوغا بالأسف:

- لن يعرف سعدون أو غيره عن جوازك شيئا لسببين، أولهما: عكرة ممسوح التفكير، قد لا يتذكر أصلا أنه أعطاني شيئا.

- في هذه، عندك حق وثانيهما؟

يتردد أمناي لكنه يقول في حزم:

- عكرة أحرق كل جوازات السفر والبطاقات الشخصية، أغرقها بالبنزين وأشعل فيها النار.

اتسعت عينا طارق وتدلى فكه دهشة وهو غير مستوعب الخبر الذي فجره أمناي أمامه فسأله بارتباك:

- كل الجوازات بلا استثناء؟

- كلها، وهو يدندن بأغنية غريبة فتركته وأسرعت بالعودة إلى زلطن.

- نحمد الله أن سعدون يأتي الحوش نهاية الأسبوع، فقد اعتاد أن يقود الشباب ليلة الخميس أو الجمعة إلى أحواش زوارة، حمدا لله على سلامتك يا صديقي وتصرفك لن أنساه ما أحياني الله.

- لا شكر على واجب وبطاقتك الشخصية كما هي، ملصوقة بآخر صفحة.

- ألم تلمح جوازا لـ...

يقاطعه دخول أفرين وبين يديها زجاجة الماء، تضعها على المنضدة وتجلس على حافة الفراش فيجيب أمناي على سؤال طارق المبتور:

- من بين مئات الدفاتر، كان كل همي العثور على جوازك ومغادرة الحوش في سرعة.

يضع طارق ذراعيه على كتفي أمناي ثم يعانقه في قوة، يقبّل رأسه بقبلة أودع فيها كل معاني الشكر والعرفان بالجميل، برفق يبعده أمناي فتعجبت أفرين من تصرفهما، همت أن تسأل لكن تالا تقبل بهدوء قائلة:

- العشاء جاهز يا أمناي.

- أحضريه إلى السطح، الليلة طقسها جميل، أعدي المكان يا أفرين.

في صمت رافقت أفرين أختها، ربت أمناي على كتف طارق، همّا بالخروج من الغرفة، توقف طارق أمام النتيجة.

- أستغربُ التاريخ يا أمناي، شهر هانيبال من عام ألف و...

يقاطعه أمناي:

- تقويم وضعه معمر القذافي فإنه يبدأ بعام وفاة الرسول.

- صلى الله عليه وسلم

- لكنه غريب جدا!

- كل حياتنا هنا جعلها العقيد غريبة جدا، لذا نعيش هنا في الغرب في عزلة عن نظامه بعض الشيء، نتكلم لغتنا ومازلنا نحتفل بهجرة الرسول.

فجأة يصمت أمناي وكأنه ندم على الحديث عن العقيد، فأطرق رأسه وطال سكوته فتشجع طارق وعاد بالحوار عن مغامرة أمناي التي خاضها بجرأة لم يتوقعها طارق:

- ولِمَ لا يتم القضاء على سعدون وغيره ممن يتاجرون في أرواح الشباب؟

يرفع أمناي وجهه قاطبا حاجبيه، يزفر في أسى وهو يجيب:

- لو قبض على سعدون، يوجد ألف سعدون غيره، الفساد مستشرٍ في كل مكان يا طارق، أبي كان يردد دائما مقولة لجدي عبدالله: لا تهتم بذنب الحية فالسم في رأسها.

يهز طارق رأسه وهو غير مستوعب لمقولة أمناي الذي لم يلبث أن خرج من الغرفة فدلف طارق الحمام وانتظره أمناي ليرافقه إلى السطح، صعدا صامتين ومن آن لآخر يرنو طارق بسكون لوجه أمناي الهادئ، يهز رأسه أسفا لنفسه المنكسرة بالاغتراب واللجوء، اللذين جعلاه عاجزا عن تقديم مكافأة لهذه العائلة الكريمة البسيطة.

وصلا إلى السطح، التقطت أنفه الهواء القادم من البحر، يصيخ السمع فتتواتر على أذنيه أصوات الموج وصيحات النوارس البعيدة، يجلس أمام منضدة قصيرة مستديرة تشبه الطبلية التي يأكل عليها، لم تلبث أن أتت تالا بطبق كبير من الأرز يعلوه فخذ جدي استوى شواؤه، أما أفرين فقد اختصت نفسها بإحضار الماء، جلست جوار أختها أمام الناحية الأخرى من المنضدة، اغترف كل منهم في طبقه ما يأكل وقلدهم طارق، في صمت تناول

أربعتهم الطعام ومن حين لآخر تدور نظرات طارق على الوجوه الطيبة، تمنى أن يبقى ليتعرف على رب هذه الأسرة التي ملأ حبها قلبه، أن يقبّل يده، يشكره على ابنه الشجاع أمناي، على البيت الذي أحسن ضيافته، الفتاتين السمحتين، لكنه صمم في قرارة نفسه أن يرحل، في امتنان سيودع زلطن المضيافة، ذات القلب الكبير ويغادر زوارة اللئيمة، المتآمرة بسماسرتها ومهربيها على أرواح الشباب.

- سرحت؟

يلتفت إلى أمناي الذي انتشله من بحر تأملاته فيجيب:

- ربنا عظيم يا أمناي، منذ أيام كنت ملتصقا بعدة ألواح خشبية تتقاذفها الأمواج وسط عتمة البحر، لا أسمع غير صوتي، لا أرى إلا جسدي المهلهل، والآن أتعشى بين أكرم عائلة قابلتها في حياتي.

- وأنت إنسان محترم يا أخ طارق، دائما أخي أمناي لا يأتي لنا إلا بكل خير.

قالتها تالا وعيناها منخفضتان فابتسم طارق وهو يعقب:

- أنتم الأفضل.

- وحكاياتك ونكاتك جميلة.

نطقت أفرين في طلاقة فضحك أمناي وهو يرد على أخته:

- تحبين الحكايات والنكات، يكفيك حكايات أم أمغار.

طفر وجه السيدة العجوز أمام وجه طارق، تمنى لو تطول إقامته فيستمع إلى حكايا السيدة تافوكت لكن الرحيل في الغد لا محالة، أنهوا جميعا العشاء فشعر طارق بوخم الامتلاء، في همّة لملمت الفتاتان ما تبقى على المنضدة، نزلتا فتبعهما أمناي وبقي طارق

يتأمل نبتة القمر التي بزغت والنجوم من حوله ترصع السماء، ابتسم لنجوم برج السرطان، أرسل إليها نظرات الاشتياق، أشار بيده للسرطان الرابض في سكون وكلابته المعقوفة حول جسده، جحظت عيناه فجأة لتحرّك السرطان رافعا مخلبه لأعلى ناحية البحر؛ فقطب حاجبيه وهو يحادث نفسه:

- أي سفينة أو قارب ستهاجمه أيها السرطان العنيد؟ أي مهاجرين آخرين ستفترسهم بكلابتك الفتاكة، رحمتك يا رب.

- تكلم نفسك يا طارق؟!

انتبه لصوت أمناي الواقف أمامه وبين يديه طبق الفاكهة، يتناول طارق حبات العنب وهو يوضح لرفيقه:

- كنت أكلم السرطان.

- سرطان؟

- آه، أقصد نجوم برج السرطان، فهو برجي الذي ولدت فيه.

- تؤمن بالحظ وأبراج السماء؟

- للتسلية، فالنصيب يقدره الله عز وجل، تنشر صحفنا كالأهرام مثلا: حظك اليوم، أقرأ حظ برج السرطان ولم يتوافق معي إطلاقا.

يتبادلان ابتسامة خفيفة، يتناول أمناي العنب ويدير دفة الحديث:

- غريب أنك درست الجغرافيا والتاريخ ولا تعرف عنا غير عمر المختار الذي رأيت فيلمه!

في خجل يجيب طارق:

- درسنا في الجامعة جغرافية مصر والوطن العربي وأفريقيا والعالم بوجه عام وتاريخ احتلال وحركات تحرر الدول، لكن مدن وقرى البلاد بعيدة عن دراستنا.

- على الرغم أن تلك القرى هي التي كتبت بدماء أبنائها كل ما تعلمته من تاريخ، درست كفاح الشعب الليبي ضد الطليان لكنك لم تسمع عن السلامي أبو رتيمة.

- من أبو رتيمة؟

- من زلطن ومن أعظم المجاهدين بعد المختار، قبض عليه الإيطاليون وأعدموه أمام الناس في طرابلس عام اثنين وأربعين.

في صمت يهز طارق رأسه، ينشغل في أكل ثمار التين الطازجة، يدرك أن أمناي على حق فما رآه هنا وسمعه يشعره أنه لم يدرس شيئا في حياته، ازدرد لعابه وهو يقول مؤكدا:

- غدا إن شاء الله بعد ظهر الجمعة سأسافر.

وكأن أمناي يتوقع قرار طارق فلم يعقب وتركه يكمل:

- سأتجه إلى زوارة ومنها إلى موقف الإسكندرية بطرابلس.

- لا، بل ستركب مباشرة إلى طرابلس؛ حتى لا تمر على زوارة لئلا يراك أحد فتقع في مشكلة كبيرة.

- توجد مواصلات مباشرة إلى طرابلس؟

- هنا عربات ميكروباص تتجه مباشرة إلى طرابلس وغيرها من البلاد البعيدة، على العموم سأسافر معك إلى...

- لا، ابق مع تالا وأفرين.

- لا تخف عليهما، المهم أطمئن عليك حتى تغادر بسلامة الله وسأعود قبل الليل.

سحابة صمت تظللهما فرفع طارق رأسه يتأمل برج السرطان بنجومه الوامضة، فأمدته بفكرة عزم أن يعلنها لأمناي فالتفت إليه قائلا في حماس:

- لم أجرّب الكتابة، أي كتابة، كنت أدوّن ملاحظاتي على هوامش مذكرات الكلية، قررت بعد رجوعي البلد إن شاء الله أكتب حكاية هجرتي وأسجل كل ما واجهته فيها وأكتب عنكم.

- تكتب عنا؟

- بكل محبة وفخر أكتب أن أسرة كريمة أنقذتني من الضياع وشملتني برعايتها لحين عودتي.

- قلتُها لك يا طارق، لم أفعل غير الواجب.

- واجبك الذي تقلل من قيمته يا أمناي أعاد لي ولأسرتي الحياة.

- ربنا يكتب لك العودة وييسّرها لك.

- آمين يا رب.

يصمت طارق ويبقى أمناي متكئا بكوعه على حشية صغيرة، تثاءب طارق وتململ في قعدته، بنهوضه واقفا أعلن عن رغبته في إنهاء السهر، نزل إلى الحجرة، استأذن من أمناي في النوم المبكر، تمدد على الفراش، تقلب على جنبيه هو يستحث انقضاء الليل حتى يستعد لرحلة العودة.

***

-25-

أمام المرآة يمشط شعره المبلول، يمر بسبابته على وجهه الحليق، يتأمل قوامه المائل للاعتدال بزيه الليبي النظيف، يرفع الطاقية المستديرة، مكبرات الصوت تبث تلاوة قرآن ما قبل صلاة الجمعة، يلتفت لدخول أمناي، يبتسم لهيئة طارق المهندمة وقد أضفت الطاقية التي وضعها على رأسه أبهة.

- اليوم أراك في أحسن حال.

- بفضلكم.

- الفضل لله يا طارق، هيا حتى لا نتأخر.

يتمهل طارق فيتقدمه أمناي، استقبلا الطريق إلى مسجد بعيد، تظهر معالمه كلما اقتربا فيتعجب طارق من مئذنته العتيقة، يلتفت إلى أمناي فيسأله:

- مسجد قديم.

- إنه مسجد الولي أبو القاسم أبو شويشة، أقدم مساجد زلطن، حوله قبيلة خويلد.

- والولي مدفون فيه؟

- نعم.

صمت أمناي لاقترابهما من المسجد العامر بالقاعدين حتى بابه برغم عدم رفع الأذان الأول، اختار مكانا ظليلا في باحته الأمامية وجلس فجاوره طارق، دارت عيناه في وجوه الجالسين سواء القريبين منه أو البعيدين فوجد شبها واضحا يربط بينها وكأن كل الوجوه صبغت بسحنات قريبة يربطها خيط واحد، فأرجع ذلك إلى أصلهم، فأهل القبائل -على ما

درس في الديموغرافيا- يمكنهم الاحتفاظ بأصولهم لانعزالهم وعدم دخول دماء غريبة عليهم ولو سأل أي واحد منهم عن اسمه ليظل يقول أنا ابن ابن ابن إلى أن يرجع لجدهم خويلد الذي ذكره أمناي، لكنه تعجب من كثرة الشباب الذين يرتدون القميص والبنطال برغم اعتقاده أنه سيرى كل من بالمسجد يلبسون الزي الليبي القديم مثله ومثل أمناي.

انتصبت أذناه لصوت الأذان الأول، مسّ الصوت الرخيم الممطوط حنايا قلبه فظل يردد في سره إلى أن انتهى فنهض جوار أمناي ليصلي ركعتين ويدعو الله أن يهيئ له طريق العودة، كما يسّر لأمناي سرعة الحصول على جواز سفره وبطاقته الشخصية، ما إن أتم الصلاة حتى جلس فتناهى لمسامعه صوت الإمام يلقي السلام، أنهى المؤذن الأذان الثاني، أثنى الإمام على النبي صلى الله عليه وسلم ثم بدأ خطبته بتناول الحديث الشريف:

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته».

أكمل بقية الحديث الشريف وطفق يتناول بالشرح مسئولية كل إنسان عمن يرعاهم وطارق يخفق قلبه ويتساءل في قرارة نفسه: هل فرّط في مسئوليته تجاه أسرته الصغيرة عندما تركها وهاجر؛ لا يملكون من حطام الدنيا سوى البيت الذي يسترهم ويقتاتون بمعاش أبيه طوال الشهر، يخشى إن سعل أخوه إيهاب لا يجد له ثمن الدواء، ترسخ التصميم على ألا يتركهم مرة أخرى، سيكافح من أجل الارتقاء بحياتهم، لن يفكر إلا في تعليم أخيه وأخته ورعاية أمه، شغله الحنين لأسرته عن موضوع الخطبة برغم جدية خطيب المسجد وتناوله مسئولية كل إنسان بشكل جديد ضاربا الأمثال من الحياة الواقعية والمواقف التي يواجهها الناس، حتى أنه لم يتنبه لانتهاء الخطبة الأولى ثم الثانية إلى أن أقيمت الصلاة فوقف كتفه ملاصقا لكتف أمناي.

بعد انتهاء الصلاة، خشي أمناي أن يقف مع أحد فيحادث طارق ويدرك أنه غريب فيقع في استفسارات عديدة فابتعد عن مسجد الولي يتبعه طارق، سارا في طريق ترابي كثير الانحناءات فأراد طارق أن يستفسر عن المسجد ومقامه:

- والولي أبو شويشة قريب لعائلتكم؟

- عائلتنا من غدامس فنحن غرباء وسط قبيلة خويلد وعوين والنوائل وغيرها من قبائل أصولها قديمة، لكنهم طيبون محبون للحياة في هدوء، بعيدون تماما عن صراعات طرابلس وبنغازي ومعارضي العقيد.

- هل سنعود إلى البيت لأستعد للسفر؟

- سنعود ولكن بعد أن أريك بلدنا كلها.

ارتفع حاجب طارق لعبارة أمناي الأخيرة، لكنه ظل يتبعه في صمت صاعدين الدرب المعوج وهو يشعر بأنه يرتقي تبّة كبيرة، وقف أمناي والعرق يتفصّد من جبينه، التقط أنفاسه مقدما منديلا لطارق فمسح بدوره العرق الناز على رقبته، من بين أنفاسه اللاهثة تخرج كلمات أمناي شبه متماسكة:

- لا أحد يأتي هنا في هذا الوقت، انظر.

دارت نظرات طارق إلى حيث يشير أمناي بيده فاتسعت عيناه دهشة للبحر البعيد فعض شفتيه لذلك الجبار الأزرق الرابض في هدوء يفترس أجساد ضحاياه من المهاجرين، راودته ذكريات البرد والظلام وهو على قرص خشبي يقاسي الجوع والعطش والموت غرقا، فأشاح بوجهه فجأة طاردا تلك الساعات المخيفة التي يتمنى ألا يواجهها ثانية.

بنايات حديثة عالية متناثرة تجاورها بيوت المدينة القديمة مائلة على بعضها في حنو، مستكينة في خجل ثم مصاطب وشواهد ملتصقة بالأرض فأيقن أنها مقابر البلدة، ندت عنه آهة ممطوطة لتلك الغابة من الأشجار الكثيفة، التي تغطي مساحات شاسعة من الأرض غربا فالتفت إلى أمناي الذي بادره:

- إنها غابة زلطن القديمة، بها آلاف الأشجار وتعتبر متنزها لأهل البلد.

ظل طارق يتأمل تلك الآجام المتشابكة، تمنّى لو يملك الوقت الكافي كي يتجول وسطها، يعيش يوما بين جذوعها وأغصانها الملتفة وكأنه في إحدى غابات أفريقيا التي درس طبيعتها، ابتسم للطيور البعيدة التي ترفرف ثم تحط على شعاف الأشجار، ظل يراقبها إلى أن انتهى إلى تخوم الغابة لتستقبل عيناه الصحراء برمالها المتوهجة تحت شمس الظهر الفتية، امتدت نظراته إلى لا شيء، فقط تلال بعدها غرود لا نهائية فهز رأسه للصحراء الكبرى التي يراها الآن على طبيعتها لا كما قرأ عنها في تضاريس القارة الأفريقية.

تنحنح أمناي معلنا رغبته في العودة فأغمض طارق عينيه وفتحهما وهو يشاهد لأول مرة في حياته وآخرها البحر والمدينة ببيوتها ومقابرها ثم الغابة وبعدها الصحراء، ها هي الألوان تتجاور معا، الأزرق فالأخضر ثم الأصفر، تمنى أن يمتلك كاميرا ليلتقط عشرات الصور ويصنع منها أطلسه الخاص غير الذي درس طوال عمره، رنات هاتف أمناي المحمول تفيقه فالتفت إليه، لكنه انشغل بالمحادثة القصيرة التي أنهاها بخطوات العودة إلى البيت.

- إنها تالا تتساءل عن تأخرنا وتخبرني أن كل شيء جاهز.

ارتسم وجه تالا، إنه كمعناه صافية كينبوع الماء، ربة منزل كأنها متزوجة منذ عشرات الأعوام، كلامها رقيق كبشرتها النحاسية، واعية لكل ما حولها ومن حولها، تمنى طارق أن تقبل زواجه منها، يصطحبها معه إلى مصر، إلى بلدته النائية في وسط الصعيد.

- أخي أمناي، لي رغبة أن أتقدم لخطبة أختك تالا، أتزوجها وأبقى معكم هنا لو أحببت، أخدمها بعيني وأعمل معك في البستان، سأنتظر عودة أبيك وأمك وأطلبها منهما ويمكن أن أرسل لأمي وأخي وأختي فيأتون جميعا للحياة معكم.

انتظر طارق رد أمناي السائر في صمت ثم اكتشف أن كل ما رغب فيه كان مجرد فكرة دارت في مخيلته وهفت إليها نفسه، لكنه لم يترك واقعه المسيج بالشوك لها فرصة لتختمر فوأدها قبل أن تنضج وعجز لسانه عن النطق بها، هزّ رأسه لخياله الجامح المفلت من عِقال دنياه، أغمض عينيه بقوة كأنه يريد أن يستأثر بذلك الوجه داخلهما، ولم يلبث أن فتحهما

لتعثر قدمه في حجر فتوقف ليشاهد مسجدا تحت الإنشاء والسقالات تحيط مئذنته غير المكتملة فاستدار أمناي لتوقف طارق الذي أشار بيده قائلا:

- سأحمّلك أمانة يا أمناي لهذا المسجد عندما نعود إلى البيت؟

- أمانة؟

- نعم، ألا تقبل تبرعات لبنائه؟

- إنه بالكامل منشأ بالجهود الذاتية.

- تمام.

يفاجأ طارق بأمناي يمد يده بالهاتف المحمول

- ترغب في إخبار والدتك أو أخيك برجوعك؟

- ليس لديهم محمول وموبايلي بعته بجنيهات قليلة قبل سفري.

يواصل أمناي سيره حتى دخلا البيت فوجدا تالا وأفرين قد جهزتا طعام الغذاء فأكل طارق وصمته ممزوج بفرحته للعودة القريبة، بحزنه لمفارقته أمناي منقذه الشهم وبيته الذي تنعّم في خيره، أنهى غداءه فاتجه مباشرة إلى حجرته، وجد بنطاله وقميصه على الفراش، خلع اللباس الأبيض والطاقية الحمراء القانية وارتدى ملابسه، مشط شعره فدخل عليه أمناي بحقيبة سفر صغيرة فمط طارق شفتيه مندهشا، وضع أمناي الحقيبة على المنضدة وفتحها قائلا في ابتسام:

- بعض الأغراض جهزتها تالا وأفرين.

دخلت أفرين بين يديها لفة محكمة وزجاجة صغيرة من الزيت فقدمتها لأخيها.

- طعام للعشاء وزجاجة من زيت الزيتون الخالص من إنتاج عصارتنا القديمة.

تتسع ابتسامة طارق، يربت على كتف أفرين الواقفة في صمت، فدخلت تالا تحمل طاولة الشاي فتضعها على المنضدة، قدّمت له كيسين:

- عشبة بردقوش، هام لمعدتك ومقاوم لنزلات البرد.

يتناوله طارق، يضعه داخل الحقيبة، أما الكيس الآخر فيظهر التمر من فتحته.

- تمر من نخلنا يا أستاذ طارق، كل سنة وأنت طيب، أسبوع ويهل الشهر الكريم. يتناوله طارق وسرح قليلا ثم يعقب بصوت خفيض:

- نعم، فقد سافرت يوم الخميس ثلاثة وعشرين يوليو وكان أول شعبان.

- واليوم ثالث عشر من أغسطس يوافق اثنين وعشرين من شعبان.

- نعم، ثالث عشر من شهر هانيبال العظيم.

اتسعت ابتسامة أمناي لتعليق طارق الطريف، التفت إلى تالا التي تناولت بعض الكتب من الرفوف الخشبية ونفضت عنها التراب:

- اقرأ هذه الروايات.

- بدأت فعلا في قراءة ديوان النثر البري.

- إبراهيم الكوني غدامسي مثلنا وستجد الصحراء التي يكتب عنها مليئة بالحياة، ليست جرداء كما يظن البعض.

تناول طارق من يدها الكتب وهو مبسوط للعنوان الذي جرت عليه عيناه في سرعة -ديوان النثر البري- فقد تمنى أن يكمل تلك الأساطير المفعمة بالحياة، وضع الكتب داخل الحقيبة

فالتفت أمناي إلى أختيه:

- بقيت صورة تذكارية مع طارق.

أعطى الهاتف المحمول لأفرين، وقفا متلاصقين فالتقطت أفرين عدة صور وأعطت الهاتف لأخيها، وقفت بدورها جوار طارق الذي قوّس ذراعه حول كتفها فالتقطت الكاميرا صورة لهما، التفت طارق فلم يجد تالا، ولم ينتبه لخروجها من الغرفة، بإشارة من عين أمناي خرجت أفرين مغلقة خلفها الباب، فطأطأ طارق رأسه وافترت شفتاه بكلماته المتناثرة:

- أشكركم يا أمناي على ضيافتكم.

- الشكر لله وكما قلت لك، فعلت معك ما كنت أتمنّى أن يفعله إنسان مع أخي صقر رحمه الله.

- رحمه الله وجعل مثواه الجنة، خذ هذا المبلغ يا أمناي، مساهمة في بناء المسجد القريب من الناحية.

يتناول أمناي الورقات المالية ويفردها بين أصابعه، يرفع وجهه لطارق متعجبا:

- إنها خمسمائة يورو!

- نعم، مساهمة في بناء المسجد ومنها اشترِ مصحفا كبيرا واكتب داخله «صدقة جارية على روح المرحوم عربي»-

- أهو صاحبك الدمياطي الذي حكيت عنه؟

- يرحمه الله هو ومن معه.

- وماذا ستقول لأهله عندما تعود؟

- لن أذهب إلى أهاليهم، وإن سألني أحد عن أي مهاجر سأقول له أنني عدتُ ولم أركب السفينة.

- سيشهد عليك برج السرطان الذي تحبه.

- بعد عودتي سالما إن شاء الله لن أترك نفسي لحظوظ الأبراج، أرجوك يا أمناي، تنفذ وصيتي بالنسبة للمبلغ والمصحف.

- في أقرب وقت سأذهب إلى البنك وأبدل اليورو بالدنانير الليبية، وأنفذ ما طلبت.

يحمل طارق الحقيبة على كتفه، يخرج من الغرفة فيفاجأ بأفرين واقفة أمامهما ممسكة بدمية صغيرة من الفخار، تقدمها لطارق والعبرات تلتمع في عينيها:

- هدية مني لأختك رضوى.

- ستفرح بها جدا، سأحكي لها عنك يا أفرين وسأروي لها حكاية الفيل والأرنب الحكيم.

يميل نحوها فيلثم جبينها الغض، ينتصب واقفا، يواصل السير مارا بحجرة الجد فيودع بطرف عينه البندقية القديمة المعلقة على الجدار، تخرج تالا من الحجرة المقابلة مطرقة رأسها، يقف قبالتها لا يدري كيف يشكرها، تنفلت الكلمات من بين شفتيه المكبلتين بالخجل:

- أختي تالا، لن أنسى جميلكم عليّ.

من بين عينيها الخجلتين يلمح نظرة غريبة لم يلحظها من قبل فمد يده مسلما، تلاقى كفاهما فضم أصابعها في قوة فاستسلمت يدها للعناق العابر ثم كان الفراق الذي لا محالة منه، انسحب كفها وتباعدت أناملها في هدوء فخطا في سرعة خارجا من الباب، سار جوار أمناي والدموع تطفر من عينيه حتى وقف أمام باب السور الخارجي:

- أخي أمناي، أغرقتموني بجميلكم، تمنيت أن أترك تذكارا لكني لا أملك.

- بل تركت تذكارا كبيرا.

التفت طارق إلى حيث يشير أمناي فاتسعت عيناه للقرص الخشبي الرابض جوار الباب، اقترب منه، جثا أمامه، بأصابعه يربت عليه في حنو، يشم رائحة البحر العالقة به، كأنها الطيف مرت ذكرى الساعات التي عاشها معه، يطبع على خشبه قبلة أودع فيها كل معاني الوداع، ينهض عازما على إنهاء تلك اللحظات القاسية، يخرج من باب السور، يقوده أمناي نحو موقف السيارات، عرجت أقدامهما نحو بيت السيدة تافوكت فلمحها من بعيد تجلس تحت سقيفة بيتها، جدّ في السير نحوها، أقعى أمامها، مدت يدها مسلمة فقبلها، غمغمت بكلمات عبثية، نهض طارق مغادرا المطرح وسأل أمناي:

- ماذا قالت؟

- قالت إنها ما زالت تنتظر أمغار.

- الزعيم؟

- نعم، لا تزال السيدة العجوز تنتظر عودة الزعيم.

- يحفظها الله.

من بعيد ظهر موقف السيارات وقبل أن يصلا استوقفه أمناي:

- حذار يا طارق أن يلمحك سعدون أو الفضيل، من موقف طرابلس اركب أول سيارة متجهة إلى معبر السلوم.

أمام السيارة، يعلو صوت المنادي:

- أربعة طرابلس، أربعة طرابلس.

في قوّة يتحاضن أمناي وطارق وكل منهما لا يريد مفارقة رفيقه، سحت عينا طارق دموعا غزيرة حتى بللت كتف أمناي فأبعده في رفق، تخرج كلماته مفعمة بالامتنان:

- لن أنساكم يا أمناي.

دون أن ينطق أمناي ربت على كتف طارق ومد يده نحو باب السيارة المفتوح فولجها راكبا جوار النافذة، دار أمناي إلى الناحية المقابلة فوقف أمام طارق منتظرا تحرُّك الميكروباص فارتسمت ابتسامة خفيفة على وجهه وهو يسأل:

- ماذ ستقول للسيدة والدتك؟

- كما قلت لك ونحن في البيت، أنني عدتُ ولم أركب السفينة، وأنت يا أمناي، ماذا ستقول لأبيك السيد ماسين؟

- سأخبره بكل شيء، فإن لم أفعل ستسبقني أفرين وتحكي له عنك وسيلومني أنني لم أتمسك بك ليراك بنفسه.

- سلامي الحار له وللسيدة الجليلة والدتك.

يومئ أمناي وفي سرعة يخرج عدة دنانير يضعها في كف طارق الذي اتسعت عيناه معلنا معارضته لكن أمناي يهز رأسه في تصميم:

- لا وقت للاعتراض، ربما تحتاج لشيء حتى السلوم وإن لم تنفقها فهي هدية لأخيك إيهاب.

قبل أن يعلق طارق، حضر ثلاثة شباب دفعة واحدة فركبوا السيارة، أغلق السائق بابها وأدار محركها، فبادر أمناي إليه وأعطاه أجر ركوب طارق ثم أشار إليه بأنه خالص وطارق يرفع

يده محييا، تحركت السيارة مغادرة الموقف ومن حين لآخر يُخرج طارق رأسه من النافذة فيلمح شبح أمناي البعيد حتى استقبل الطريق، يتردد أذان العصر من المساجد القريبة، يرفع عينيه نحو الأشعة القوية، يسخر من نجوم برج السرطان المتوارية خلف الشمس.

تنهب السيارة الطريق حتى مرت نصف ساعة فقرأ لافتة مكتوبا عليها «زوارة» عض شفتيه لتلك المدينة التي شهد تحت سمائها أقسى تجربة مر بها في حياته، استجاب الله لدعواته ألا تتوقف السيارة فيها فمالت نحو الطريق السريع، أخرج طارق من الحقيبة كتابا، قرأ العنوان:

- «في مكان نسكنه، في زمان يسكننا» رواية لنفس الأديب الغدامسي إبراهيم الكوني.

لم يشعر بالوقت حتى قطعت السيارة عدة كيلومترات إلى أن هدّأت من سرعتها للمطب المقتربة منه، تتسع عينا طارق، تتسارع دقات قلبه حين وقعت عيناه على وجه سعدون الراكب جوار السائق في السيارة المقابلة، أدار رأسه نحو العربة، بحركة لا إرادية يرفع طارق الكتاب ليداري وجهه، عرفه بقميصه الأحمر القاني ونظارته الشمسية التي تخفي عينيه الخبيثتين، خلفه لفيف من الشباب وجوههم بيضاء وسمراء، تزيغ نظراتهم المتشوقة للهجرة، لم تلبث أن تتخطى عربته المطب وتسرع.

يطل طارق من النافذة فتودع عيناه سيارة سعدون، أنياب الشك تنهش نفسه القلقة من أن يكون سعدون قد لمحه من خلف نظارته السوداء، يعض شفته متمنيا أن يعود فيحذر هؤلاء المخدوعين من تلك الهجرة الملعونة، يخرج زجاجة المياه، يتجرع نصفها، فيهدأ قلبه، تنتظم أنفاسه يتأمل غروب الشمس والشفق الأحمر يتمطى عبر الأفق، من حين لآخر يطل من نافذة السيارة لئلا يعود سعدون فيلاحقه لكن الميكروباص يطوي الطريق مبتعدا، تميل السيارة ناحية مقهى ومطعم مقابلين للبحر.

تتوقف للراحة فينزل طارق والغصة تخنقه لتلك العطلة التي أتت في غير وقتها، لكنه عزم على أمر صمم على أن ينفذه، تخطى الطريق وهو يتلفت يمينا ويسارا، يقف أمام الشاطئ،

يخرج كيس عربي، يسحب الصورة الصغيرة، يتأمل وجه الفتاة الرائق، يمط شفتيه، يميل فيلتقط حجرا صغيرا، بخيط رفيع يلف الصورة حول الحجر، يضعه في الكيس البلاستيكي ويلفه جيدا، يطيح به، تراقب عيناه الحجر الذي يهبط بقوة نحو البحر، يسقط فتبتلعه المياه المزبدة، يرفع كفه أمام الموج مودعا:

- صورة حبيبتك معك يا عربي، مع السلامة.

يعود إلى السيارة، بقلق ينتظر عودة الركاب، تظل عيناه تمسحان الطريق والعربات تمرق من حوله، تنفس الصعداء حين عاد السائق وبقية المسافرين، ما إن ينطلق بالسيارة مستقبلا الطريق نحو طرابلس حتى انغمس في القراءة، لكن الظلام تسلل فأغلق الكتاب واضعا إياه في الحقيبة، يبتسم في سخرية لوجه سعدون والفضيل وعكرة وقائد السفينة الأفريقي، يحمد الله في قرارة نفسه على الصبر الذي استحصن به طوال ساعات محنته، يومض وجه أمناي وتالا وأفرين والعجوز تافوكت حتى الوجوه التي رآها مصادفة في زلطن لمعت في ذاكرته؛ فأعادت إلى روحه الطمأنينة، يزدرد لعابه العذب، تتردد لهجتهم الغريبة في ذاكرته فيتحدّث بصوت خافت لا يسمعه إلا هو:

- اليوم الجمعة أسيمواس وبعد غدٍ أسماس سأكون في البيت.. إن شاء الله.

1. الغلاف
2. ليل زوارة
3. ليل زوارة رواية تأليف : أيمن رجب طاهر تص...
4. الإهداء
5. الغرق هو الحدث الوحيد الحقيقي
6. -1-
7. -2-
8. -3-
9. -4-
10. -5-
11. -6-
12. -7-
13. -8-
14. -9-
15. -10-
16. -11-
17. -12-
18. -13-
19. -14-
20. -15-
21. -16-
22. -17-
23. -18-
24. -19-

-20- .25
-21- .26
*** .27
-23- .28
-24- .29
-25- .30